

أ- صلة الباحث بالموضوع:

يصعب على المرء - أحيانا - أن يجيب عن بعض أسئلة النفس التي تسكن بين جنبه؛ لأن الإحساس يصبح أقوى من الوعي. ويغدو الأمر كما يقول بعض المتصوفة: نحسُّ بأشياء ولا نعيها. وربما يسوغ لي ذلك، أن أتناول صلتني بالموضوع من هذه الناحية؛ إذ كان توجهي للاهتمام بالأدب الجزائري منذ كنت طالبا في الجامعة لأسباب أحسها ولا أعياها. ولكن لم أتناول هذا الأدب بالشكل الأكاديمي المتعارف عليه. وإنما توجهت إلى الشعر العربي المشرقي، وربما يعود السبب، إلى ما تعلمناه - كطلبة - من الكتب التي قرأناها، ومن المعارف التي تتقننا بها والتي كثير منها ينتهي بتزكية الشعر المشرقي في كونه الأرقى من الناحية الفنية من شعر المغاربة، وعلى وجه الخصوص الشعر الجزائري. ولا أنكر في البداية، بأنني كنت مولعا بهذا الشعر المشرقي، وما زلت إلى اليوم. ولكن بقيت في النفس، على الرغم من مرور السنوات، أشياء من أدب الجزائر. وعندما أنهيت رسالة الماجستير، وناقشتها بجامعة قسنطينة. وجدت أن فكرة البحث في الشعر الجزائري، أصبح صداها يلاحقني في كل حين، وربما تكون أسباب هذه الملاحقة، ناتجة عن تطور الوعي لدي في حرصي على أن يدرس الشعر الجزائري من قبل أبناء بيئته ووطنه؛ لأنهم أعرف بتفاصيل تلك البيئة بمختلف محتوياتها التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية. ومن جانب آخر اكتسابي للمنهج، بشكل اطمأنت له، ولد في النفس ثقة كبرى في التفرغ لإعداد بحث في الشعر الجزائري. فحصلت القناعة الأولى. وكانت الظاهرة التي تلفت انتباهي دائما هي فكرة البحث المتواصل، من قبل الشعراء عن شيء داخل ظلمات النفسية الجزائرية عبر الأنساق والنصوص الشعرية، وكأن هنالك شيئا غائبا، يحاول الشعراء استرداده والتمسك به. وهذا البحث المتكرر داخل تلك النصوص، هو في الواقع بحث عن

ملاح الشخصية الجزائرية هناك أكثر من دافع يجعل هؤلاء الشعراء -
بمختلف مشاربهم المعرفية المتعددة - يطرحون أسئلة الوجود، والذات،
والتاريخ، والنحن، والأنا، والوطن، والحضارة ... وغيرها من الأسئلة التي
تحولت إلى هواجس تقض مضاجعهم . ولعل من أكبر الدوافع، هو مواصفات
الوجوه الجزائري عبر مختلف القرون التاريخية المتعاقبة ؛ إذ أن في كل حقبة
تاريخية تتكالب المحن والقروح والجروح على جسد الشعب الجزائري، ويخرج
في كل مرحلة مستمسكا بخصوصياته، من العهد الفينيقي إلى الاستعمار
الفرنسي. ولأعم أيضا أن الشعر الجزائري العربي الحديث و المعاصر منذ وجد
كان مسكونا بالقضايا العربية ومختلف الأحداث و لوقائع التي مست و تمس
جسد هذه الأمة. وعليه فله خطاب الشعري معبأ بتفاصيل الصدمة العربية التي
تكشف لنا عن الوجه العربي والإسلامي الضائع الذي يفتش عن ملامحه. وأشار
إلى أن عدم تناول الشعر الجزائري المكتوب بالفرنسية ليس إقصاء له، أو أنه
لا يحمل الحس الحضاري . وإنما أرى أن يدرس ذلك الشعر وفق خصوصية
اللغة التي تحمله . ولا أنكر أنني استسهلت الموضوع ، في البداية، ولكن كلما
كنت أتعلم فيه أستشعر ضخامته وتشعبه وصعوبة احتوائه والسيطرة عليه
بشكل كلي. وإنما الرغبة في البحث والاطمئنان إلى الموضوع حفزني لخوض
غماره. ومن هذا، أعتبر جهدي متواضعا وبسيطا وهينا مع كبر هذا الموضوع
الذي أدعون خلاله الباحثين الذين لهم رغبة في التخصص في الأدب
الجزائري، أن يكملوا هذا الجهد المتواضع، كأن ينشئوا مخبر بحث لخدمة هذه
الفكرة والتوسع فيه. نشأة الأدب الجزائري إلى يومنا هذا . وقد أجملت
أسباب الاختيار فيما يلي:

1- انسجام طبيعة الموضوع مع توجه ي الفكري والثقافي والإبداعي؛ ولعلي لا جُانب الصواب إذا قلّدتُ إن الخطاب الشعري الجزائري المعاصر ينبني على خلفية فكرية أيديولوجية تستوعب الثقافي وتسعى إلى التأسيس الإبداعي .

2 - الخطاب الشعري الجزائري المعاصر منغرس ضمن منظومة حضارية عربية و ينبغي استظهار الروابط العربية و الفكرية الإسلامية ، التي تربط ذلك الخطاب بالخطاب الشعري العربي، وإثبات أن الحركة الشعرية الجزائرية المعاصرة فيها الكثير من الصدى العربي الشعري بفعل الاحتكاك و التأثير .

3 -الحركة الشعرية الجزائرية المعاصرة تعيش جدلية الخارج و الـ داخل، أو بمعنى آخر النص متحاور مع الواقع المرحلي من جهة ، ومع الوقائع الأدبية المتنوعة خاصة العربية من جهة أخرى .

4 - الحركة الشعرية الجزائرية المعاصرة بمختلف بنياتها المعقدة تطرح في المقابل أزمة القارئ . و إن كانت هذه القضية أيضا، هي من قضايا المتن الشعري العربي الحداثي بشكل عام .

5 - استحقاق قضايانا الحضارية و الثقافية المعاصرة بالبحث، والاستكشاف، و التأصيل لها .

6 - ضعف - و أحيانا غياب - الحركة النقدية الموازية للعمل الشعري.

7 -المتن الشعري الجزائري المعاصر منطو على أسرار جمالية جمّة تستحق الكشف والاستظهار.

8 - تفالينظرة القائلة بأن الشعر الجزائري المعاصر مستواه ا لفني أدنى من مستوى الأجناس الأدبية الأخرى.

ب- حدود الموضوع وإشكاليته:

لقد ولدت فكرة الانشغال بهذا الشعر جملة من التساؤلات الملحة، منها كيف سلتطيع تناول هذا الشعر ، في ارتباطه بالمجتمع بتنوع حملته الثقافية والحضارية وماهي مختلف المنابع الفكرية والأيدولوجية التي كانت تزخر بها الحمولة الدلالية في النصوص الشعرية؟ ومن هذا المنطلق، اعتبرتُ المجتمع بتشكيلاته الاجتماعية والثقافية هو الإطار الحضاري العام الذي أُحاول الاسترشاد بمعالمه، كلما احتجتُ إلى ذلك . والمجتمع في أبسط تعريف له ، يعني نسيجاً تتجمع فيه أفراد تربطهم عادات و تحكّمهم قوا نين و يمارسون وظائف شتى تنشئ فيما بينهم مصالح مشتركة . و هذا المجتمع قد يحمل بداخله بذور استمراره و يحقق بذلك جوهر الكيان الاجتماعي وقد يفقد شخصيته و يتآكل عبر التاريخ و يصبح نسيا منسيا . فشبكة العلاقات الاجتماعية تتأسس ، حسب علماء الاجتماع من منطق الغريزة التي تحدد معالم الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً ، ثم تعطى له مسببات الحركة الزمنية ، فيصبح عنصر الزمن هو الحدث الأساسي للمجتمع ، إذ ينطلق من نقطة معينة باتجاه نقطة أخرى ، يكون التطور عنوان السيرة الاجتماعية ، و يتجه نحو إنتاج الأفكار و الإمكانيات المادية التي تدعم علاقات الأفراد فيما بينهم ، و بتأسس البنى المادية و الثقافية وتبادلها مع بعض ، يحدث الوعي و تتشكل الرؤى ، و تنتج الأطر الحضارية التي تميز المجتمعات بعضها عن بعض . فعامل الحضارة هو عامل حساس ، في واقع الأمر لتسطير التوجهات الثقافية و الفكرية و الإبداعية لدى المجتمعات و الأمل بالحضارة كما يرى الدكتور معن زيادة في كتابه (معالم على طريق تحديث الفكر العربي) تكون: إمّا محصلة التاريخ الثقافي للإنسان، وإمّا ثقافة مجتمع كبير نسبياً، مع ضرورة استمرار هذه الثقافة لفترة طويلة . وكم حدثنا التاريخ عن حضارات الأمم و الشعوب ، مثل حضارة الفراعنة ، و حضارة

البابليين و الآشوريين ، و حضارة الإغريق و الرومان ... و لأن كانت هذه الحضارات من إنتاج الإرادة الإنسانية أو الفعل الإنساني النابع عن إرادة الإبداع المستمر و المتميز ، فإن الفوارق تبقى كائنة و موجودة. نأتج عن اختلاف البنى الفكرية ، و الثقافية، والرؤى و التصورات ، و ما يزال البحث عن مسببات تلك الحضارات يطرح بحدة إلى وقتنا الراهن ؛ إذ البحوث تقوى من حين إلى آخر بمنطلقات منهجية حديثة تستوعب الواقع المعرفي الحالي و تحاول الاستكناه و الكشف عن حقيقة الوجود الإنساني . من هذه المناهج نجد المنهج الأنثروبولوجي ، و الأنثروبولوجي المعرفي ... و كلاهما يبحث في قضايا الإنسان و تفاعله مع محيطه الطبيعي و الاجتماعي التاريخي ، و تطوره من مرحلة إلى أخرى و اكتسابه الأفكار و الرؤى . و امتلأت الساحة الفكرية و الفلسفية بمصطلحات البحث الـ حدائي الذي يحاول دوما دراسة مظاهر التحول الإستمولوجي و مسبباته عبر الأزمنة التاريخية منها : أركيولوجيا المعرفة - جينيالوجيا المعرفة - تاريخ الأفكار ... إن هذا الغليان ناتج - في اعتقادنا - عن بعض الإفرازات الفكرية و الأنساق الثقافية التي تحدث التصادمات الحضارية بين الأمم و الشعوب ؛ لذلك نجد محاولات إعادة النظر تظهر باستمرار . فلا غرو أن تنشأ الأفكار و ما تلبث أن تموت ثم تبعث تارة أخرى و تتصارع الفلسفات و ما تلبث أن تتحاور فيما بينها .

لقد ظهر الشعر العربي الحديث والمعاصر في ضوء خلفية فكرية جديدة تدعو إلى تبني الثورة (المفهوم الواسع وهو التغيير)، و السعي نحو التفكير المنبثق عن رؤية مغايرة للماضي الذي أصبح حسب زعم البعض - غثا لا يسمن و لا يغني من جوع - و قد أحدث هذا الأمر وقرا في الأذن العربية ، و أفرز ذوقا ممجـ و جا في البداية ؛لأنه اصطدم مع واقع شعري متأصل في الوجدان العربي و منبثق عن انتماء حضاري مؤثث بأفكار و مفاهيم

و لكن سرعان ما وجدت آراء تهادن ، و تحاول تقريب قطبي الصراع إلى أن حدثت شبه سكية و إن كانت تخبي في بطنها نارا . و من جهة أخرى و جدت آراء لا تريد المهادنة، إنما تريد أن تؤطر واقعا مرحليا حضاريا يسوغ ذلك اللباس الشعري الجديد و يصنع لنفسه ملامح فنية تتلاءم مع الوجه الحضاري الحاصل . و من منطلق حداثة الشعر ظهرت حداثة النقد ، التي سعت إلى التأسيس و محاولة ضبط آليات الشعرية الحديثة ، و صنع تربة أدبية تقبل بالضيف الوافد .

ومن هتجلت لي الإشكالية التي أريد دراستها، وقد اكتمل التصور في ذهني، فرأيت أن الإحساس بالوجود ، وبالهوية، وبالمجتمع، ناتج أولا وأخيرا عن الإحساس بالانتماء . وأزعم أن جل المراحل التي مر بها الشعر الجزائري الحديث مفعمة بهذا الإحساس. لذلك ضاق بي الحال، في البداية ، عن أي مرحلة تكون إطارا للدراسة ؟. وانتهيتُفي الأخير إلى أن مرحلة الاحتلال الفرنسي كانت فيها فكرة الرفض تستحوذ على الكثير من الأشعار، نظرا لثقل الواقع بالسياسات الفرنسية الظالمة . فكان الشعر هو صوت الشعب المعبر عن ضعفهم، وعن رفضهم وفي مقابل ذلك كان الاله مثم بالجانب الفني قليلا . ورأيت أن مرحلة ما بعد الاستقلال هي المرحلة التي بدأت تكتسب النصوص فيها، الخصوبة الفنية، وتسعى إلى اكتساب ملامح التحديث؛ فكانت تنمو وتتطور من حين إلى آخر وقد كانت الصعوبة كبيرة في انقاء المدونة الشعرية التي تعينني على الدراسة، والسبب هو كثرة النصوص الشعرية . وهذا الأمر جعلني أبذل جهدا مضني في القراءة والمتابعة والاستقراء ، واستقرت القناعة بأن اختار ثلاثة أجيال من الشعراء تتناسب نصوصهم مع طبيعة العقود الثلاثة المعنية بالدراسة. وكانت فكرة الانتماء داخل النصوص الشعرية متفاوتة من شاعر إلى آخر، وتطرح بحدة عند شاعر وببرودة عند آخر، مما جعلني أميل إلى تناول

النصوص التي أرى أنها تخدم موضوعي . وعند التمعن في عقود ما بعد الاستقلال، نجّلن الاختلافات بين ا لمتون الشعرية واضحة وجلية، والسبب يعود بالدرجة الأولى إلى تغير طبيعة الرؤية الشعرية ، وخصوصية كل مرحلة . وؤكد من جهة أخرى ، أن المراحل الثلاثة ما بعد الاستقلال التي مر بها الشعر الجزائري المعاصر (الستينيات والسبعينيات والثمانينيات)، قد عايشَت مختلف التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي مست المجتمع الجزائري. وكان الشعر يلامس كل هذه المراحل، و يطرح في كل حين فكرة الانتماء الحضاري. وكأن الحاجة إلى التعبير عن هذه القضية أصبح عبارة عن إشكالية تبسط أجنحتها على جسم القصيدة ومن هنا كاذت عناصر الموضوع المتناول ت تحرك في دائرة الملامسة الشعرية للواقع الجزائري والعربي في همومه وقضاياه وسياساته وثقافته. ومن جهة أخرى في دائرة البحث المستمر عن الحمولة الحضارية التي يستند إليها، ويجعلها محكاً للوجود الجزائري ضمن الدائرة العربية بمقومات الحضارة العربية الإسلامية. مع محاولة تبني الطرائق المنهجية الحديثة التي تساعد على الكشف والاستنباط لمختلف المحتويات الفنية التي تلعب دوراً بنائياً في النصوص؛ وعليه فالتناول هنا أيضاً هو بحث عن الهوية الفنية للخطاب الشعري الجزائري . واستثيفي هذا البحث فترة التسعينيات؛ لأنها، في اعتقادي ، كانت فترة مغايرة نظراً للأحداث المهمة التي حصلت وعلى رأسها أحداث الخامس أكتوبر 1988. فهذه المرحلة هي نقطة تحول هامة في حياة الشعر الجزائري المعاصر، تستحق أن تدرس على حدة . وعلى هذا الأساس، كانت اتصالاتي بالمشرف الدكتور محمد العيد تاورته بجامعة قسنطينة ، تحاول أن تصل إلى اتفاق بيننا حول طبيعة البحث ومنطلقاته. فارتأينا معاً أن يكون عنوان الأطروحة ملامسا لواقع الحس

الحضاري العربي، الذي يتجسد في الاهتمام أساسا بقضايا المجتد مع العربي .
وجاء العنوان بهذه الصيغة:

الخطاب الشعري الجزائري المعاصر و إشكالية الانتماء الحضاري.

- من مطلع الاستقلال إلى نهاية الثمانينيات -

ج- جهود سابقة في الموضوع:

لقد تم الاحتكاك بمجموعة من الجهود المحترمة التي بحثت في متون الشعر الجزائري الحديث والمعاصر، وكانت الاستفادة كبيرة جدا . منها بحث الدكتور صالح خرفي الموسوم بـ(الشعر الجزائري الحديث) والذي يهتم بالغو الجزائري انطلاقا من سنة 1930، وينتهي بعد الاستقلال بسنوات معدودة وهي نهاية الستينيات وهذا الاهتمام ينصب على الأغراض الشعرية من مثل : الشعر الديني والوطني والثوري والعاطفي، باحثا في البواعث التي تقف وراء الظاهرة الأدبية. وسعى مؤلف هذا البحث إلى الربط بين مختلف الجوانب البيئية والتاريخية والملابسات والظروف . وهناك بحث الدكتو ورمحمد ناصر الموسوم بـ(شعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية . 1925-1975). وتتاول فيه عدة قضايا منها : المؤثرات الأساسية في الاتجاهات الفنية في الشعر الجزائري، ويقصد بها، المؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية ويصل إلى نقد الخصائص الفنية للشعر الجزائري من خلال الاتجاهات الفنية الثلاثة التي تمثلها، وهي : الاتجاه المحافظ، والاتجاه الوجداني، والاتجاه الجديد. وهناك دراسات أخرى، مثل: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر للدكتور عبد الله ركيبي، الذي تناول فيها ١: العروبة والوحدة في الشعر الجزائري، وقضية فلسطين، وبعض القضايا والمناسبات العربية الأخرى. كما

تعرض إلى بعض الخصائص الفنية لهذا الشعر من مثل بناء القصيدة ومفهوم الوحدة، وتلبرها نقطة تجديد في هذا الشعر . ولا أنسى كتابه الآخر الموسوم بـ(الأوراس في الشعر العربي. ودراسات أخرى). ومن بين القضايا التي تناولها في اللغة والقومية في الشعر الجزائري المعاصر . واعتبر أن الصراع الذي دار بين الشعب الجزائري وبين المستعمر الفرنسي كان محوره قضيتي الهوية والانتماء. ونشير أيضا إلى دراسة الدكتور محمد مصايف الموسومة بـ(فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث) ومن بين ما تناول فيه : إسلاميات محمد العيد آل خليفة . وانتاجنا الأدبي في الـ مشرق العربي. إضافة إلى قضية الالتزام . ونذكر في هذه العجالة كتاب الدكتور أبي القاسم سعد الله الموسوم بـ(أسات في الأدب الجزائري الحديث) تناول فيه ، من بين ما تناول القضايا العربية في الأدب الجزائري . وهو مقال ألفه سنة 1960. وإن كان لا ينتمي إلى الفترة الزمنية لبحثي ، إلا أنه يجعلني أطمئن إلى أن القضية التي أبحث فيها، صدامها وجود عند كبار نقادنا . وهناك دراسة شلتاغ عبود شراد الموسومة بـ(حركة الشعر الحر في الجزائر) وقد حدد فيها الإطار الزمني للدراسة بـ (1954-1974) وتطرق فيها إلى الحياة العامة في الجزائر من (1945 إلى 1954) بمختلف الملبسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ثم تعرض بالدرس إلى الأدب العربي الحديث وحركة الشعر الحر، ثم حدد طبيعة الشعر الحر في الجزائر، مستخلصا مختلف المضامين الشعرية والقضايا الفنية التي تلبّس بها. ولا أستثني، أخيرا، دراسة أحمد يوسف الموسومة بـ(يتم النص. الجينيولوجيا الضائعة). وهو عمل يبحث في إشكاليات النسب وشجرة النسب التي ينتمي إليها النص الشعري الجزائري. وكذا استخلاص السمات الدلالية لشعر اليتيم، كما طرح فيه إشكالية التلقي وحدود التجريب في النص الشعري الجزائري. ولا يسعني في هذه الإطالة إلا أن أقدم

بالشكر لكل هؤلاء وغيرهم، ممن لم يسعفهم الحظ في ذكرهم هنا، عن جهودهم القيمة التي فتحت لي آفاقا رحبة للخوض بعزيمة أكبر من أجل تحقق أهداف بحثي المتواضع.

د - المنهج:

للمنهج أهمية كبرى ، فلا نعجب لحدة الغليان و التوتر التي نلمسها عند الغربيين والتي تتجلى في مواقف المدارس الغربية المتعارضة فيما بينها . ولا شك أن تلك المناهج نابعة من منطلقات فكرية، وفلسفية، واجتماعية قد نستحي في أحيان كثيرة أن نعترف -نحن العرب - بوقوفنا منتظرين تلك المناهج من مجتمعات قد لا تتسجم طموحاتها مع طموحاتنا و رؤانا ، ففعلنا في إنتاج هذه المناهج غائب ، و بالتالي الاختيارات العلمية لهذا الأمر قد تكون أقوى من الطاقات النقدية التي نمتلكها . و يمكن الاعتراف بمضض أننا أمة تعيش تخلفا في المنهج و إنما لحد الآن نتخبط مثلا في تحديد علاقتنا بالنص الأدبي، و مع موروثة الحضاري و الفكري، و رؤيتنا المستقبلية نحو واقع إجتماعي لا يصطدم مع معطيات الراهن الحضاري .

و لئن تعددت المناهج و تباينت، فإن المنهج الذي تعرّض إلى جدل كبير هو المنهج البنيوي. ونعترف بادئ ذي بدء، بأنه أنقذ النص الأدبي من التغييب الذي عاناه بفعل الطروحات التي تُعلي من شأن الملابس الأيديولوجية و الاجتماعية، و التاريخية، و أعطى له سلطة عظمى، إذ أصبح عالما ذريا مغلقا، وعلى الناقد أن يقوم بعملية الاقتحام قصد معرفة نوعية العلاقات و القوانين و الأنساق الداخلية التي تحكمه. و كل ذلك ناتج عن الفتح اللساني الذي قدمه العالم (فردينان دوسوسير F.De Saussure) حيث اعتبر اللغة نظاما (Système) من العلاقات و نظاما من الاختلافات و دراستها ينبغي أن

تكون من الداخل بدل الانطلاق من الخارج . لذلك نجد الناقد الشكلائي (رومان جاكبسون R.Jakobson) يلح على ضرورة التعامل مع البنيات اللغوية، و يصرح بأن موضوع الأدب هو الأدبية (Littérarité). فالناقد البنيوي يركز على البنية (Structure) أولا و أخيرا . ويضبطها بثلاث مكونات أساسية حسب (بياجي J.Piaget) و هي: الشمولية (Totalité) و التحولات (Transformations)، و التحكم الذاتي (Autoréglage). و من خلال معرفة القوانين الداخلية للبنية ينصب البحث في الدلالة و معرفة الإيحاء . و لا شك في أن المدرسة البنيوية صادفت خصوما أشداء ، و هم أصحاب المنهج الاجتماعي الجدلي الذي تبناه الماركسيون و على رأسهم (تروتسكي Trotsky)، و يعتبر من الناحية التاريخية، من أوائل المنظرين الماركسين الذين تصدوا للمدرسة البنيوية في روسيا، و أرسى فكرة أن النص الأدبي مغروس في وجود مشروط بظروف موضوعية خارجة عن إرادة المبدع ، و منبثق عن وضع اجتماعي ما ، لذلك يشير غولدمان (L.Goldmann) في منهجه البنيوي التكويني إلى أن أول معاناة يرتكز عليها الفكر البنيوي التكويني تكمن في أن التأمل في العلوم الإنسانية يحدث لا من خارج المجتمع ، بل إن هذا التأمل جزء من الحياة الثقافية لهذا المجتمع . حيث إن الفكر جزء من الحياة الاجتماعية ، و المبدأ الثاني لكل علم اجتماع جدلي تكويني هو أن الأفعال الإنسانية هي أجوبة شخص فردي أو جماعي، تؤسس محاولة لتغيير وضعية معطاة في اتجاه ملائم لتطلعاته . و هذا يعني أن كل سلوك له خاصية دالة و ليست دائما واضحة ، على الباحث إظهارها . فالنص في منظور أهل المنهج الاجتماعي الجدلي ليس لعبة لغوية و إنما خزان يستوعب مستويات من الوعي و الإدراك ؛ إذ يتحول النص

في حد ذاته إلى رؤية للعالم ذات أبعاد دلالية اجتماعية و يصبح عمل الباحث منصبا على معرفة هذه الرؤية .

وأشير من جهة أخرى إلى أن أهم المناهج السائدة حاليا هي مناهج ما بعد البنيوية (Post – Structuralisme) مثل التشريحية (Déconstruction) و نظرية التلقي (Théorie de Réception). و الأمر هنا ليس قائما على الإلغاء ؛ كإلغاء النص مثلا و سلطته، و إنما اعتماد القراءة الحرة من خلال مفهوم السياق (Contexte) يكون النص منبثقا عن كل النصوص المتوضعة على أسئلة التاريخ والثقافة والحضارة ... و تتوطد العلاقة بينها و بين القارئ إلى درجة أن تصبح علاقة وجود ، وذلك بإعادة إنتاج النص و معرفة الأنماط الوراثة و اللغوية التي شكلته.

كما أن الاستعانة بالمنهج التاريخي تكون أحيانا نوعا من التأصيل البناء ، خاصة إذا كان قادرا على أن يكشف المسببات و الحثيات التي تنتج وضعها اجتماعيا أو حضاريا ما .

و عليه أعدد رؤيتي المنهجية وفق التصورات التالية :

01 - الاستقراء التاريخي التحليلي يؤسس لنا رؤية منهجية تكشف عن العوامل السببية التي تقف وراء الظواهر المشكلة للبنى و النظم الاجتماعية و الفكرية . و سيكون ذلك على وجه الخصوص في الباب الأول.

02 - المنهج الاجتماعي الجدلي يسهم في تحديد الظاهرة الشعرية الجزائرية المعاصرة المنسجمة مع الواقع الاجتماعي المتحرك باستمرار . و عليه فالنص ليس جهازا ذريا مغلقا ، و إنما يرتكز على مبدئين : البنية اللغوية المعقدة ، و الإطار الاجتماعي المحدد .

03 - الدراسة النصية (Textuelle) تفتح على صعيد العمل الإبداعي وحده، وإثمليضا على صعيد العمل الثقافي ، وامتداداته، بحيث يتحقق الالتزام

الثقافي الجمالي الذي يفرضه ال تدخل الشعري والثقافي من ناحية ، و إلحاح المتطلبات التطويرية من ناحية أخرى .

04 - تحليل النص هو بلوغ جوهره ، إنه عملية فك لرموزه، ووحداته اللغوية والتركيبية ، ومحاولة استبطان مواطن القوة الإبداعية والجمالية؛ لذلك يكون تحليلنا تتبعاً، واستقصاء متأنياً للدال (Signifiant) والمدلول (Signifié).

05 إعادة النص إذا كانت منه و إليه تعود ؛ فإنها بالقد ر نفسه من خارجه تأتي و لى خارجه تمضي بالشكل المتاح ؛ إذ يستحسن معرفة المواقع المرجعية التي تقف خلف النص من دون الوقوع في التصنيف المذهبي الصرف .

06 - اللغة نسق (Système) اصطلاحي للتعبير. من هنا يبدو أن منطلق الدراسة الخاص بالأبنية الشعرية - على أساس أنها تمثل لغة ثانية - لا بد أن يتأسس من منظور التعبير ، و ينمو إلى الارتباط بفكرة التوصيل المتعلقة بالقراءة . و هذا التلازم بينهما يجعلنا نضع أيدينا على مواطن الجمال أو الشحنات الأسلوبية التي تتيح الأثر الجمالي ؛ و بذلك يمكننا أن نقول : إلأثر الشعري لا يوجد إذا كان ال متلقي لا يتقبل المحتوى الشعري المبتوث في الرسالة الشعرية.

وانطلاقاً من هذه الرؤية المنهجية جاءت الخطة مبنية على ثلاثة أبواب جمعت بين الجوانب التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية، وفي مقابلها شعرية الشعر؛ لأن له دوراً تكميلياً في إبراز الهوية الأدبية. وأشار إلى أنني سعتُ قدر الإمكان إلى البحث عن الكتب والمراجع والبحوث التي تخدم موضوعي في جانبه التاريخي ؛ فذهبتُ إلى الكتب التي تناولت التاريخ الجزائري القديم، وحاولت من خلال بعضها إبراز المعطى الوجودي التاريخي

للشعب الجزائري، وقد تجنبت الخوض في غمار الصراعات التاريخية الكبيرة؛ لأن ذلك يجعلنا نقع في الكثير من المتاهات التاريخية . وربما الفرصة تتاح أكثر لمن هو متخصص في التاريخ الجزائري، حتى يبحث ويكتشف مختلف الحقائق التاريخية التي تؤسس لوجودنا الجزائري . فاكتملت بإبراز طبيعة مجتمعنا بمختلف خصوصياته العرقية واللغوية والدينية، وكيف انصهرت وشكلت لنا الخصوصيات التي تميزنا عن غيرنا من الشعوب الأخرى. فعنونتُ الباب الأول بـ: الإطار الثقافي والحضاري للمجتمع الجزائري . وأسسته على فصلين. الفصل الأول طرحته فيه إشكالية الهوية الجزائرية وفق العناصر الثلاثة المشكلة لها، وهي: العرق والدين واللغة. والفصل الثاني تناولتُ فيه مرحلة ما بعد الاستقلال للعقود الثلاثة (الستينيات والسبعينيات والثمانينيات). وحاولتُ نهجته مرحليا بالعناصر الثلاثة التالية : الغد الاشتراكي الموعود . وبداية الانفتاح على الأيديولوجيات الأخرى . والعنصر الثالث حوار الأيديولوجيات يحدد هذا الباب، في تصوري، مدخلا وضعتُ فيه بعض المنطلقات التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية للمجتمع الجزائري. ووضعتُ بعض التعريفات الاصطلاحية التي يمكن أن تشكل أساسا لمعالجة الشعرية، من مثل مصطلح ثقافة وحضارة من دون أن أقع في التفاصيل الأخرى التي يمكن أن تثير الاختلافات الموجودة بين هذين المصطلحين.

وعنونتُ الباب الثاني بـ : الحركة الشعرية الجزائرية المعاصرة بعد الاستقلال بحث في هوية الخطاب وهوية الذات . وأسسته على فصلين : الفصل الأول عالج الخطاب الشعري الجزائري ضمن إطاره الحضاري وفق المراحل الثلاثة التي عرفناها في الباب الأول فتناولت العناصر التالية : الخطاب الشعري داخل حركية الخطاب السياسي أو خطاب الانتماء، والعنصر الثاني الالتزام أو

الخطاب النموذج، والعنصر الثالث رؤى الانفتاح على الواقع الممكن أو الخطاب المفتوح. أما الفصل الثاني فعنوانه بـ: الخطاب الشعري الجزائري المعاصر والحس الحدائي، وتناولت فيه: عناصر ثلاثة تتمثل في: شعرية الخطاب، وهذه الشعرية بنيت على جدلية الحضور والغياب، وصناعة الصورة والرمز. والعنصر الثاني خصصته لبنية النسق السردية، وتمت الدراسة على مستوى الشخصية، والحدث، والحيز، والحوار والعنصر الثالث خصصته لدراسة التناص وأشير إلى أن أنني أعتبر البحث في هوية الخطاب الشعري كملا للبحث في هوية الذات؛ لأن طموح النص الشعري نحو التأسيس الفني يعتبر ملامسة لقضية الهوية. أن مجهة أخرى، التعامل مع النسق الشعري، هو بحث عن اللغة في نموها، وتطورها، وحركيتها داخل أطر التحولات الاجتماعية والثقافية والحضارية. كما نُشير إلى أنه وضعتُ مصطلحي الخطاب والنص كمصطلحين معتمَين أثناء التحليل من دون أو أوقع نفسي أيضا في التحديدات الاصطلاحية المعمقة، والتعرض إلى مختلف الفروقات السطحية والعميقة. لأنني عُلِّقد أن الأمر له مجال آخر. سولي هذا من باب التهرب؛ فقد أعطيتُ تحديدا نهجيا يبين حدود كل مصطلح، ومنحتُ لنفسي حرية التعامل مع المصطلحين حسب ما أراه يخدم وجهتي في التحليل.

وعنوان الباب الثالث بـ: مغامرة الكتابة الشعرية الجزائرية المعاصرة. وقسمته إلى فصلين عنوانتُ الفصل الأول بـ: جمالية التلقي وفاعلية القراءة. وجعلتُ الأمر خاصا بإشكالية قراءة الشعر الجزائري المعاصر من منطلق طبيعة القراءة والقارىء وبلاغة الغموض التي تلبس بها الخطاب الشعري في الكثير من النصوص. وربطتُ هذا الأمر بالفكرة التي هي موضوع بحثي وهي إشكالية الانتماء. معتمدا المكون السيميائي؛ لأن التعرف على قصيدة النص، كما يرى أمبرتو إيكو، هو التعرف على استراتيجية سيميائية. وبالتالي، اعتمدتُ في

الباب الثاني الفهوم السيميائي كمبدأ في التحليل، وفي الباب الثالث كمكون بنائي وكنظام للتدليل وإنتاج الدلالات أما الفصل الثاني فخصصته للبنية الإيقاعية من زاوية الوزن والإيقاع الداخلي.

وأنهيتُ البحثُ بخاتمة كانت فضاءاً للنتائج التي توصلتُ إليها. وطرحْتُ فيها جملة من التساؤلات، يمكن أن تعالج كإشكالات لبحوث مستقبلية.

وفي الأخير، لا أدعي لنفسِي الفضل في تناول الشعر الجزائري المعاصر، وإنما الفضل في عود بالدرجة الأولى إلى من سبقنا في هذا المجال، وفتح أعيننا على الأدب الجزائري فلهم كل الشكر والتقدير . وإنما كان السعي بعزيمة علمية، في حدود إمكانياتي للتواضعة التي أمتلكها، لأن أضيف هذا لملل إلى المكتبة الجزائرية. ولا يفوتني أن أسدي الشكر الجزيل والامتنان الموفور إلى المشرف المحترم الذي صبر معي على محنة هذا البحث، وأحاطني بالرعاية الفائقة التي جنبتي الوقوع ، مرات كثيرة ، في المطبات المنهجية والمعرفية، كما أنه حفزني كثيرا، وكان يمدني بالأمل دوما في الاستمرار والمواصلة في اكتساب العلم والمعرفة، وينمّي بين جوانحي في كل لقاء معه، الرغبة في التطلع أكثر . فأنا شاكر جدا له هذا المعروف. وإنني لأرجو التوفيق والسداد من الله.

الباب الأول / الإطار الثقافي والحضاري للمجتمع الجزائري.

الفصل الأول: / إشكالية الهوية الجزائرية. استقراء تاريخي.

الفصل الثاني: / الاستقلال وإشكالية المسار الثقافي للمجتمع.

الفصل الأول: إشكالية الهوية الجزائرية / استقراء تاريخي.

01 / العرق

02 / الدين

03 / اللغة

المجتمع الجزائري مجتمع ضارب في القدم، سكن الشمال الإفريقي منذ أقدم العصور، ثم انضم العرب إلى هذا المجتمع بفتوحاتهم الإسلامية فاندمج الجميع في هذه المنطقة التي أصبحت تسمى بلاد المغرب العربي الواقع في شمال أفريقيا. وباعتبار الجزائر ذات مكانة مهمة تاريخيا في هذه المنطقة فإنه لا بد من القول " بأن هذه المنطقة، ومنذ أقدم عصور ومراحل ما قبل التاريخ، قد شكلت، كلا حضاريا، وبشريا، وجغرافيا، وبيئيا واحدا. لذلك فإنه يبدو من الصعوبة بمكان- إن لم تكن الاستحالة- فصل بعض مناطقها عن بعض"⁽¹⁾. ولقد امتد هذا الأصل ورسخ في ذاكرة التاريخ انطلاقا من مسوِّغات عرقية واجتماعية وحضارية، حفظت بقاءه واستمراره على الرغم من التحولات التاريخية الكبرى التي مر بها. وهذه التحولات تتمثل أساسا في تنوع الأشكال الاستعمارية التي حاولت الانغراس في عمقه، لكن نزعة الرفض كانت بائدة في كل حين تاريخي إلا فيما يتعلق بالانغراس العربي الإسلامي، وسنأتي إلى تفصيل ذلك الأمر في حينه. إننا سنحاول تبين ملامح المجتمع الجزائري من خلال الانتماء العرقي الأول الذي انحدر منه، ثم مختلف الخصائص والميزات التي اكتسبها عن طريق الاحتكاك والاندماج مع مختلف الحقب التاريخية

(1) محمد الطاهر العدواني: الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1984. ص: 208.

والثقافية التي مر بها. فـ " أول من سكن مغربنا جماعات من أبناء يافث انتقلوا إليه من المشرق، ومنه انتقلوا إلى جنوب أوروبا كما تدل على ذلك الآثار والنصوص الصحيحة" (1). ومعروف تاريخيا أن نوحا-عليه السلام- له من الأبناء ثلاثة هم: سام وحام ويافث. وهؤلاء الثلاثة هم " الذين عمروا الأرض بعد أن أغرق الله ما فيها بدعوة نوح لما كفر به أهل عصره. وقد نجت في سفينته زمرة من المؤمنين به، ولكنهم لم ينسلوا أو هلكت ذريتهم، فبقي نسل أبناء نوح الثلاثة. فكان نوح عليه السلام آدم الثاني، وأصلا من أصول البشر، ومبدءا للخلقة." (2). ومن الطبيعي أن يكون التناسل فيما بعد الوعاء الذي يحفظ بقاء النوع؛ وقد تناول ابن خلدون السلالة التي كانت أصل العمارة في المغرب العربي، والمتمثلة في أبناء يافث وهم سبعة، ثم الأمم المنحدرة منهم، قال: " وأما أبناء (قطوبال) فهم أهل الصين من المشرق، واللمان من المغرب. ويقال إن أهل إفريقية قبل البربر منهم، وأن الإفرنج أيضا منهم، ويقال إن أهل الأندلس قديما منهم" (3). وربما بذل المستعمر الفرنسي جهدا كبيرا في إثبات أن الأصل المغربي ينحدر من أصول أوروبية؛ وعليه تكون حجته الاستعمارية مبررة. " لقد قالوا إن هؤلاء السكان الأولين للمغرب جاءوه من أوروبا ! وقد نقل هذه الدعوى بعض المؤرخين المغاربة. إن الآثار التي دلت على وجود هؤلاء السكان تتصل من المشرق إلى المغرب، وبعض عباداتهم وطقوس دينهم شبيه بما هو في المشرق(*)، سيما في مصر التي كانت طريقهم إلى المغرب.

(1) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ج.1 ط.1964/1. مطبعة عيسى البابي وشركاه. ص:17.

(2) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(3) ابن خلدون: العبر. ص:10. نقلا عن محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص:17.

(*) كانوا يؤمنون بعقيدة البعث والنشور على غرار المشاركة فتدفن مع الميت أدوات الطعام والشراب. ينظر دبوز: تاريخ المغرب ص:18/19.

والمغرب فيما قبل التاريخ " هو الناحية التي تلح لحياة بني الإنسان لا جنوب أوروبا البارد الذي تكسوه الثلوج، ويعمرّ الجليد أغلب نواحيه".⁽¹⁾ ويذهب محمد إبراهيم الملي في المنحى ذاته عندما يتحدث عن الألواح والرسوم التي وجدت في بلاد المغرب مثل التيس ذي القرون المتعددة والظباء والزرافة والنعامة والحيوانات الأليفة خاصة التيس الذي يحمل فوق رأسه دائرة تشبه دائرة تيس آمون.⁽²⁾ وهذا يؤكد أن هناك " صلة بين هذا الرسم وبين آلهة طيبة في مصر الفرعونية، بينما يرى البعض الآخر أن مصر والمغرب استعملا أساسا عقائديا مشتركا. وتمثل الرسوم- في بعض الأحيان- هذه الحيوانات مجتمعة مثل معارك الجواميس التي عثر عليها في الريشة (الواقعة بين آفلو وعين ماضي) ومثل هجوم أسود و ثعالب على خنزير بري في كاف مصور (حوز واد الشارف)."⁽³⁾ والشيء نفسه يراه الشيخ عبد القادر الجيلالي في أمر العبادات وطبيعة الديانة المسيطرة على عقولهم " فهي مؤسسة على عبادة مظاهر الطبيعة من الأجرام العلوية العظيمة كالشمس والقمر، وبعض الحيوانات كالقرد والتيس والأفعى، وقد وجد الباحثون في جبل بني راشد - قسنطينة- تمثال تيس على رأسه هالة تمثل دائرة الشمس يدعونه "اتون".⁽⁴⁾ ويشير في الكتاب ذاته إلى أن هناك اتفاقا لدى المحققين من علماء التاريخ والآثار والجغرافية أن الذين سكنوا الشمال الإفريقي قديما هم من سلالة الجنس الأبيض،

(1) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص: 178.

(2) محمد إبراهيم الملي: الجزائر في ضوء التاريخ. مطبعة البعث. قسنطينة 1980. ص: 20.

(3) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(4) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج.1. ط.2. مكتبة الشركة الجزائرية. الجزائر 1965. ص: 47.

ومن هناك هاجر الإنسان إلى أوروبا، وأيدوا نظريتهم هذه بما دلت عليه الاكتشافات الحفرية الحديثة التي أجراها العالم الأثري (أرامبورغ) الذي كان واحدا من العلماء الذين اكتشفوا بناحية (معسكر) من القطر الجزائري، هيكلًا عظيمًا يرجع تاريخه إلى 450 ألف سنة. كما أن هذا العالم اكتشف هيكلًا آخر متحجرًا يرجع تاريخه إلى نصف مليون سنة.⁽¹⁾ واستمرار نسل يافث في المغرب العربي دام إلى غاية العصر الحجري، ثم فاض عليهم جنس أكثر منهم عددًا وأقوى شخصية هم جنس البربر.⁽²⁾ لقد تناول صاحب كتاب (صبح الأعشى) الأصل الذي انحدر منه البربر وإن لم يكن مفصلاً بالشكل الكبير؛ إذ أورد ما طرحه ابن خلدون في كتابه العبر والمسعودي، والجوهري؛ فيرى أن العرب منهم ما هو بائن الأصل ومنه ما هو متردد في أصله، يقول: " الضرب الثالث من العرب الموجودين المتردد في عروبته وهم البربر بباعين [والصواب ببائين] موحدين مفتوحتين بينهما راء مهملة ساكنة وراء مهملة في الآخر قال الجوهري ويقال فيهم البرابرة والهاء للعجمة والنسب ولا يمتنع حذفها وقد اختلف في نسبهم اختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين إلى أنهم من العرب ثم اختلف في ذلك فقليل أوزاع من اليمن وقيل من غسان وغيرهم تفرقوا عند سيل العرم قاله المسعودي وقيل خلفهم أبرهة ذو المنار أحد تبابعة اليمن حين غزا المغرب وقيل من ولد لقمان بن حمير بن سبا بعث سرية من بنيهِ إلى المغرب ليعمروه فنزلوا وتنازلوا فيه وقيل من لخم وجذام كانوا نازلين بفلسطين من الشام إلى أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلجأوا إلى مصر فمنعهم ملوكها من نزولها فذهبوا إلى المغرب فنزلوه وذهب قوم إلى أنهم

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج1. ص: 46.

(2) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص: 19.

من ولد لقشان بن إبراهيم الخليل عليه السلام وذكر الحمداني أنهم من ولد بربر بن قيذار بن إسماعيل عليه السلام وأنه ارتكب ذنبا فقال له أبوه البر البر اذهب يا بر فما أنت ببر. (1). إن تعدد الآراء مردها إلى تعدد القراءات للتاريخ، واختلاف المادة التاريخية من مؤلف إلى آخر. خاصة وأن العلماء العرب قديما كانوا حديثي عهد بالتدوين واعتماد الرواية، مما جعل الاستفاضة وطريق السرد والتطويل هو المتحكم في المسألة؛ لذلك نرى القلقشندي يصول ويجول في أصل البربر سعيا منه في جمع أكبر عدد ممكن من المعلومات، ورص بعضها بجانب بعض حتى يتم له الأمر. وعلى هذا فهو ينصرف إلى طرح آخر في قضية أصل البربر، يقول: "وقيل هم من ولد بربر بن ثميلا بن مازيع بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وقيل من ولد بربر بن كسلاجيم بن حام بن نوح وقيل من ولد ثميلا بن ماراب بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح وقيل من ولد قبط بن حام بن نوح وقيل أخلاط من كنعان والعماليق وقيل من حمير ومصر والقبط وقيل من ولد جالوت ملك بني إسرائيل وإنه لما قتله داود تفرقوا في البلاد فلما غزا أفريقش البلاد نقلهم من سواحل الشام إلى المغرب وهو الذي رجه صاحب العبر وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلى أنهم من العرب وإن لم نتحقق من أي عرب هم وهم قبائل متشعبة وبطون متفرقة وأكثرهم ببلاد المغرب وبديار مصر منهم طائفة عظيمة" (2). وعلى هذا يكون النزوع حدث من المشرق باتجاه المغرب لظروف تاريخية معينة؛ فهم كانوا في "أول أمرهم في الشام مع أبناء عمهم فلسطين. فوقعت بين الطرفين حروب وحدثت بينهم فتن، فهاجر البربر من الشام فساروا إلى المغرب فاستوطنوه،

(1) أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. تحقيق: يوسف علي طويل. ج1. ط1. دار الفكر. دمشق 1987. ص: 414.

(2) المرجع نفسه. ص: 414/415.

فغمروه بشعوبهم، وعمره بقبائلهم من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، ومن بحر العرب إلى حدود السودان.⁽¹⁾ ودائماً تنتظم المجتمعات في أسر وعائلات وفصائل وبطون وقبائل كثيرة ومتعددة، ثم يتوسع انتشارها، وتصبح مثل هذه الأصول الأولى بمثابة المرجعية في كل شيء "قال [ابن خلدون] في العبر وهي على كثرتها راجعة إلى أصليين لا تخرج عنهما. أحدهما البرانس وهم بنو برنس بن بربر والثاني البتر وهم بنو مادغش الأبتري بن بربر وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلى سبعة أصول وهي اردواحة ومصمودة وأوربة وعجبة وكتامة وصنهاجة وأوريغة وزاد بعضهم لمطة وهسكورة وكزولة"⁽²⁾. ويحدد الشيخ الجيلالي انتماء البربر الجغرافي بأنهم: "مجموع سكان الشمال الإفريقي من حدود واحة "سيوة" المتاخمة للبلاد المصرية شرقاً إلى ساحل البحر المحيط الأطلسي غرباً وإلى ضفة وادي النيجر جنوباً".⁽³⁾ وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن اسم أمة من الأمم أو شعب من الشعوب هو كيائها، ووزنها الحضاري، لذلك، فقد رأينا قبل قليل أن اسم البربر يمكن أن يكون قد جاء من اسم البر. وربما يكون قد جاء من تسمية أُطلقت ثم تداولها الناس على مر العصور فأصبحت ملازمة لذلك الشعب المسمى؛ ومن هذا المنطلق يرى الجيلالي أنه "لفظ وضعي يراد به عند اليونان "صوت الألتغ" أو هو كل إنسان أجنبي عنهم لا يتكلم بلغتهم، ومن ثمة أطلقه اليونان أنفسهم على سكان هذا الوطن وعلى غيرهم ممن هو ليس يونانيا كأمة الطاليان فإنها كانت تسمى عندهم "برباريا".⁽⁴⁾ وربما نجد بعض الطروحات التي تحاول أن تتسرب من

(1) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص 23

(2) أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى. ج 1 ص 415

(3) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج 1. ص: 48.

(4) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

هذه اللفظة لتلصق الكثير من صفات التخلف والجلافة والوحشية بأمة البربر. وتحاول من جهة أخرى أن تجعل هذا الشعب خليطا من الأجناس الذين نزحوا إلى بلاد المغرب العربي قبل الإسلام فلقد " رأوا جماعة من الفرس، وجماعة من اليهود، وجماعة من الزنوج تهاجر إلى المغرب قبل الإسلام فتستقر فيه، وتختلط بالبربر وتقنى فيهم، فقالوا: إن البربر مزيج من الدماء وأخلاق من الشعوب".⁽¹⁾ ويعتمد محمد إبراهيم الملي على رأي (شارل أندري جوليان) في تنفيذ الادعاءات الباطلة التي تسعى إلى جعل البربر شعبا هجينا أو من أخلاط متباينة تختفي فيها الأرومة والأصل إذ " لاشك أن أجناسا مختلفة تسربت إلى المغرب منذ بداية العصور التاريخية، ولئن تركنا جانبا الأجناس التي لم تندمج مع الأهالي الأوربيين الذين استقروا منذ أكثر من قرن، أو اليهود الذين جاءوا في شكل أمواج متعاقبة منذ العهود القديمة، فإننا نسجل هجرة أجناس سامية (مثل الفينيقيين، والعرب) وهند روسية (مثل اللاتين، والوندال واليونان) والأتراك والزنوج، لكن هذه العناصر المختلفة على الرغم من اختلاطها بالسكان، جاءت في أعداد قليلة بحيث لم تستطع أن تدخل تغييرات جذرية على الوضع العرقي للشمال الإفريقي".⁽²⁾ ولا شك في أن سكان البربر كانت لهم تجمعات سكانية في مناطق مشهورة وموزعة وفقا لطبيعة نفسيتهم المنسجمة معها؛ على اعتبار أن المكان له سلطة على النفس البشرية ويتحكم فيها، بل وينتج معها علاقات تفاعلية وتبادلية، ويغدو هذا المكان في الأخير انتماء وجوديا محققا، وربما يضيق بنا المجال لحصر المناطق الخاصة بسكان البربر؛ فسكان المغرب الأدنى سكنته خمسة شعوب كبرى من البربر؛ وهم لواتة وهوارة و نفوسة وزناتة ونفزاوة؛ فلوالة كانت في برقة إلى خليج سرت (في

(1) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص: 30.

(2) محمد إبراهيم الملي: الجزائر في ضوء التاريخ. ص: 30.

ليبيا)، ومن سرت إلى طرابلس كان لهوارة و الغرب والجنوب من طرابلس كان لنفوسة، وتجاور في جنوب طرابلس زناتة، وفي وسط إفريقية (تونس) الغربي وجنوبه تتربع نفزاوة وتجاور جبال الأوراس. (1). وأما في الجزائر فكانت كتامة في شرق سكيكدة إلى غرب بجاية إلى شمال أوراس. وزواوة من غرب بجاية إلى شرق الجزائر. أما وسط الجزائر وغربها إلى مليانة غربا و إلى المسيلة جنوبا فلصنهاجة. وكانت زناتة من مليانة شرقا إلى واد ملوية غربا. وأما البرانس فكانوا في المغرب الأقصى. (2). ولعل هناك أوصاف يتصف بها الإنسان البربري الجزائري تميزه عن عموم البربر " فهو مستطيل الدماغ معتدل القامة والوجه، بارز الخدين، غير ناتئ العينين، أسودهما متوسط العرض، واسع الفم، عريض الصدر والأكتاف، ضيق الخصر، أسود الشعر، أسمر البشرة قوي البنية". (3). وهذه الصفات قد لا تكون موحدة عند جميع البرابرة فهناك " صنف أشقر أزرق العينين مع رقة في الأنف والشفيتين مسطح الجبهة، وهذا الصنف هو أقدم العنصر البربري بهذه البلاد وتوجد منه قلة بجمال جرجرة والأوراس وريف المغرب الأقصى". (4). وبالإضافة إلى المواصفات الجسمانية فهناك مواصفات سلوكية وأخلاقية انزعت فيه مذ تشكلت الأرومة الأولى؛ فهذا الإنسان كان " فخورا معتزا بعشيرته متعصبا لقبيلته وقومه، ولعل ذلك الإفراط في التعصب والغرام بحب الاستقلال الشخصي والحرية الفردية، الأمر الذي دفع به إلى الأنانية والمنافسة إلى حد المعاداة". (5).

(1) محمد علي دبور: تاريخ المغرب الكبير. ص: 38.

(2) المرجع نفسه. ص: 39.

(3) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج1. ص: 51.

(4) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(5) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

والبربر يسمون أنفسهم الأمازيغ " وهم لا يطلقونه إلا على الأقحاح الصرحاء فيهم، أما النزلاء والدخلاء الذين يتبربرون كعبيدهم ومواليهم فلا يسمونهم أما زيغ، لأنهم ليسوا من سلالة ما زيغ. ومعنى الأمازيغ عندهم هو الأشراف. يعني الصرحاء أبناء ما زيغ الذين يحملون شخصية البربر العظيمة، ويتصفون بأخلاقهم التي تطبعهم بها الوراثة المازيغية الزكية، ويسمي البربر لغتهم (اتمازغت) نسبة إلى الأمازيغ. "(1).

يعتبر شعب البربر من الشعوب التي حنكتها التجارب على مر السنين، بفعل عوامل الاستيطان والحروب والتطاحن، من فترة تاريخية إلى أخرى. ولا شك أن الشعوب التي تكون حياتها على هذه الشاكلة تنتج أجيالا متقلبة الأمزجة حيناً وصافية أحياناً أخرى. إن التاريخ بمختلف حوادثه وأوضاعه ومميزاته يعطينا الكثير من التفسيرات للحالات التي تحدث بين فترة وأخرى، كما يعطينا طبيعة العوامل والدوافع التي كانت وراء حدث من الحوادث أو سلوك اجتماعي ما والذي كان على نمط وأصبح على نمط مغاير. فهناك شعوب ذابت في شعوب بفعل الاحتواء والامتصاص، وهناك شعوب غلبت شعوباً أخرى عسكرياً ولكنها خضعت لها ثقافياً، والأمثلة جمة ومتعددة. والبربر، على غرار باقي شعوب العالم، أثروا وتأثروا، وانهزموا وانتصروا، وانتكسوا وارتدوا على أعقابهم، وكل ذلك بفعل جملة من العناصر التاريخية التي حركت مثل هذه السلوكات. لقد كان الفينيقيون أول أمة تختلط بالبربر " وسمي الفينيقيون فينيقيين نسبة إلى وطنهم (فينيقيا)* وهي قطعة من الشام مستطيلة على سيف البحر الأبيض المتوسط، يفصلها عن بقية الشام جبل لبنان: وفينيقيا هي بلاد

(1) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص: 25.

(*) فينيقيا: كلمة يونانية (فنيكس) ولها معنيان: النخيل واللون الأحمر وذلك لاستعمال الفينيقيين هذا اللون في ملابسهم ورسم النخيل على نقودهم. ينظر كتاب تاريخ الجزائر العام للجيلالي ص: 66 في الهامش 2.

لبنان اليوم." (1). والشعب الفينيقي هو شعب سام من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - عليه السلام - وعلى ذلك فهم إخوة للعرب وبطن من أرومة كنعان انتقلوا إلى الشام مع بني كنعان لما هاجروا إليه. (2). وقد كان فعل الاحتكاك كبيرا بين البربر والفينيقيين الذين يجوبون حوض البحر الأبيض المتوسط، لممارسة التجارة " لقد نشأ الفينيقيون بطبيعة بلادهم وما تقتضيه وضعيتها ومساحتها الضيقة قوما تجارا مولعين بالأسفار وركوب البحار فبرعوا في الملاحة حتى أصبحت لهم السيادة" (3). وقد استطاع هذا الشعب أن يؤسس أسطولا بحريا ضخما يمارس به تجارته ويحصن به وجوده، في المجال العسكري. " وهكذا إلى أن حلت سنة 1500 ق م. فظهرت هنالك سفن لبعض الأمم التي كان أن اقتبست حضارتها من هؤلاء الفينيقيين فأصبحت تراحمهم يومئذ - ومن بينها أمة الإغريق التي أخذت في مضايقة فينيقية وحملتها على الانتقال أو بالأحرى على الالتجاء بسفنها إلى بلاد المغرب. " (4). وقد كان من بين الإنجازات الهامة التي شيدها الفينيقيون في بلاد المغرب تأسيس مدينة (قرطا جنة) (*). ثم تطوير التجارة واندماج المجتمع بعضه مع بعض " وإن امتزاج الدماء البربرية بالدماء البونيقية في عروق أبناء قرطا جنة البونيقيين هو سبب عظمتهم وخلوهم من الهرم والضعف " (5).

(1) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص: 99.

(2) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

(3) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج 1. ص: 66.

(4) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(*) في سنة 814 ق م. أسستها الأميرة (جونو) عندما نزلت بساحل تونس واشترت قطعة أرض وسمت المدينة (كرت جونو). للاطلاع أكثر ينظر كتاب تاريخ الجزائر العام للجيلالي ص: 69 وما بعدها.

(5) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص: 116.

لقد توطدت روابط الزواج بين الشعبين إلى درجة امتزاج الكل في الكل بين العامة والخاصة؛ فكان أشراف الأهالي وأمرأؤهم يتزوجون من نبيلات فينيقية والعكس، وباعتناق الأهالي لعقائد قرطا جنة والإقبال على مصنوعاتا أيضا تأكدت العلاقة وأصبح الكل أمة واحدة، والحجة في ذلك انتقال عرش المملكة الفينيقية من آسيا إلى إفريقيا⁽¹⁾. ولكن يفرز التاريخ أحداثا وتتوالى التطورات والتغيرات وتنهمك دولة الفينيقيين في الحروب مع الرومان ويثور البربر على البونيقيين بعدما تعرضوا للضغط من قبل القرطاجنيين، وانهارت الجزائر الفينيقية، وكانت أسباب الانهيار كثيرة ومتعددة، ويجملها الشيخ الجيلالي في أربعة نقاط، تتمثل في تنافس الأحزاب السياسية وانقسامها. وثانيها اندفاع الدولة وراء الرقي المادي وإهمال الجانب الروحي. وثالثها عدم وجود جندي يشعر بالمسؤولية خاصة وأن هناك فئة المرتزقة التي لا تأبه لشيء. ورابعها سوء العلاقة بين الراعي والرعية⁽²⁾. واستولى الرومان على الشمال الإفريقي وكانت سيطرتهم الأولى على السواحل ثم توسعت فيما بعد. و" كان ابتداء علاقة الرومان بالقطر الجزائري منذ سنة 213 ق م. وامتدت إليه يدهم فتصرفوا فيه منذ 104 ق م. ووضعوا قدمهم بنوميديا سنة 46 ق م - 42 م، ولم يكن للرومان أن يستولوا على بلاد القبائل إلا بعد سنة 297. وجعلوا عاصمتها بلدة جمعة صهريج"⁽³⁾. ولكن التعامل وحسن السلوك الذي عهد في الفترة الفينيقية الأولى لم يكن موجودا مع الرومان، بل كان العكس تماما؛ إذ لم تتح فرص الحرية، ولم تتحقق العدالة التي ينشدها السكان... ولعل ثورة

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج1. ص: 73.

(2) المرجع نفسه. ص: 80.

(3) المرجع نفسه. ص: 89.

يوغرطة (110 ق م) دليل على ذلك الضيم الذي صدر من الرومان. * " ويومئذ أخذ القائد المذكور في توحيد الطوائف البربرية وجمع كلمتهم ضد الاستعمار الروماني. فكانت ثورة عنيفة وحربا عوانا تصارع فيها الحق والباطل وكانت الغلبة في جانب الحق الذي يعلو ولا يعلو عليه، وانتصر يوغرطة على الرومان في المعركة المشهورة باسم وقعة " سوتول " بالقرب من مدينة قالمة " (1). ولئن كان البربر قد رحب بالفينيقيين في أول الأمر، فإنه لم يستطع الاندماج مع الرومان والسبب هو " أنه لا أصول راسخة للغة والحضارة الرومانيتين في نفوس البربر، من ورائه بامتزاج الدماء، أو دين، أو حب. " (2). ويأتي نزوح آخر من شمال أوربا، والأسباب دائما تكمن وراءها الأطماع التوسعية، ونقصد الوندال الذين نظروا إلى الضعف الكبير والوهن الذي أصاب جسد الدولة الرومانية، إضافة إلى نقمة البربر عليهم. " والوندال أبناء عمومة الجرمان نزحوا من شمال أوروبا فاستقروا في جنوب الأندلس فنسبت أسبانيا إليهم فسميت أندلوسية، ثم سماها المسلمون الأندلس. " (3). وفي فترة هذا الاحتلال نشأت ممالك مستقلة من البربر، وقاومت الزحف الوندالي ببسالة، و " لم يستطع الوندال أن يواجهوا تطور هذه الممالك البربرية خصوصا وأنهم كانوا قبل استقرارهم في أفريقيا عبارة عن قبائل متنقلة تعيش حياة شظف

(*) الرومان أصلهم من اللاتين، وينسبون إلى عاصمتهم روما. للاستزادة ينظر كتاب تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبوز. ص: 361 وما بعدها.

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج1. ص: 92.

(2) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص: 412.

(3) المرجع نفسه. ص: 421.

وتشرد أي حياة صعبة. لكن بعد استقرارهم في أفريقيا وجدوا إطار الحياة الرومانية الرخية المشبعة بالترف والبذخ، ولذلك سرعان ما قلدوا الرومان في الملابس والحلي، وكذلك في جميع مظاهر الحياة الرخية.⁽¹⁾ وككل أشكال الاحتلال الأخرى خضعت مناطق من المغرب إلى الوندال طيلة قرن من الزمان معتمدين التفوق العسكري من جهة، ومحاولة كسب ود البربر وولاءهم من جهة ثانية. ولكن وجود الثورات هي التي أدت إلى تقليص المناطق المحكومة من الوندال وبالتالي التعجيل بالانهيار.

وبعد هذا تأتي بيزنطا أو الوجه الثاني للرومان، لا يفرق بينها إلا اختلاف العاصمة. وفي سنة 324م افتك قسطنطين رئاسة الدولة وأصبح الإمبراطور الوحيد للدولة الرومانية⁽²⁾. والتفكك الذي حصل في جسدها فيما بعد جعل للدولة عاصمتين هما بيزنطا في القسم الغربي والقسطنطينية في القسم الشرقي، واضمحل القسم الغربي وبقي الشرق الذي سماه العرب باسم (الروم) وقد ذكر في القرآن الكريم بهذه التسمية.⁽³⁾ وبقيت الثورات البربرية تتفجر من حين إلى آخر دون هوادة؛ ذلك أن سياسة الجور تفضي دوما إلى الانتفاضة ومحاولة التخلص من ربق العبودية والاستغلال. وهذا ما حصل بالفعل. لقد استطاعوا أن يحاصروا أبواب قرطاجنة سنة 597م وطلب الغزاة (الروم) بدهاء ومكر هدنة.⁽⁴⁾

(1) محمد إبراهيم الملي: الجزائر في ضوء التاريخ. ص: 179.

(2) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ص: 437.

(3) المرجع نفسه. ص: 439.

(4) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج. 1. ص: 137.

ويعزى سبب انهيار دولة الروم في المغرب إلى اشتغال الأباطرة بأنفسهم في اللهو مع ما كانوا في حاجة إليه من التآهب والاستعداد لمواجهة الفرس، وكذلك تدخل قساوسة الروم في الحكم وتسلطهم على الحكام، وتلك عوامل كانت سببا في الانهيار.⁽¹⁾

إن عنصر العرق مع مختلف تشكلاته، وتحولاته عبر الحقب والأزمان، يتفاعل مع عنصر آخر، نود بحثه في هذا الباب. وهو عنصر الدين؛ لأن النفسية البشرية هي المحك الذي ينبغي أن نضع عليه مبدأ القبول أو الرفض لأي انتماء حضاري. والدين في الأخير هو المحفز على تقبل المقوم الثالث وهو اللغة.

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي تاريخ الجزائر العام. ج.1. ص: 140.

يلتقي سكان البربر بعد كل ما أوردناه - وإن كان مختصرا - بالفاتحين العرب والمسلمين. وإن هؤلاء السكان خضعوا لعوامل التاريخ التي لا تخلو من التأثير والتأثر؛ لذلك نراهم مرة منسجمين مع وضع معين، وتارة أخرى ثائرين محاربين ومنشقين. وإنهم لم يكونوا أجفى خلق الله كما يقول ياقوت الحموي، وأكثرهم طيشا، وأسرعهم إلى الفتنة، وأطوعهم إلى داعي الضلالة، وأصغاهم إلى نمق الجهالة، والتي لم تخل أجيالهم من براثن الفتن وسفك الدماء... وكم من شخص ادعى فيهم النبوة فصدقوه، وكم زاعم فيهم أنه المهدي الموعود به فأجابوا دعوته،... (*) إن مثل هذا الكلام لا يؤخذ مأخذ التصديق؛ لأنهم لو كانوا كذلك لما استطاعوا أن يحافظوا على بقائهم تلك الفترة الطويلة دون أن تتقضي ملامحهم العرقية والثقافية والاجتماعية. وإن قضية الفتن وسفك الدماء، قد يكون منشؤها حجم الاضطهاد والضغوط التي مورست ضدهم من قبل مختلف القوى الاستعمارية التي تعرضوا لها. أما جهلهم وسذاجتهم، وإيمانهم بالأباطيل فهي ليست وقفا عليهم فقط، ولعل ادعاءات النبوة التي حدثت في اليمامة وغيرها من باقي البلدان دليل على ما نقول. (مسيلمة وسجاح و العنسي). وقد يتقارب هذا الطرح مع طرح آخر، ولكن بتفسير مختلف؛ فكان هناك حديث أدلى به الفاتح موسى بن نصير للخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، عندما سأله عن البربر. فقال له: يا أمير المؤمنين هم أشبه الناس بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية وسماحة وبادية، غير أنهم أغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد⁽¹⁾.

(*) ينظر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان. مادة بربر.

(1) عبد الرحمن بن محمد الجليلي. تاريخ الجزائر العام. ج1. ص: 52.

فوجود نفسية البربر على هذه الشاكلة مرده إلى " ما تركز في جبلته وطبيعته من شدة العصبية وقوة الشكيمة مع ما فيه من التحذر من الكيد والتوجس من الغير مهما كان شأنه، فكان ذلك غدرا في موسى وما هو بغدر.⁽¹⁾ وكان الخليفة الفاطمي قد أوصى خليفته على إفريقية (بلكين بن زيري) بقوله: " لا ترفع الجباية عن أهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر..." وهذا المعنى قد علق عليه ابن أبي الضياف بقوله إن أهل البوادي لا يعمرن الأرض إلا بالجباية، وأما البربر فإن سيوفهم لم تنزل بادية للبغي والقتل لكثرة قبائلهم وعصائبهم، والشر يُدفع بمثله إذا أعياك غيره⁽²⁾.

لقد أقررنا بدءا أن شعب البربر كان لا يستكين بسهولة، ولا يرضخ بذلة. "غير أنهم في تقبلهم للفتح الإسلامي كانوا شيئا آخر تماما، فقد أبدوا مقاومتهم المعتادة أول الأمر للفاتحين الأول [هكذا وجدت مكتوبة. والصواب الأوائل]، واستبسلوا في صدهم عن الديار، وكان من المفروض أن يزيد ذلك من تأجج نار الحقد والتأثر في قلوب البربر كعادتهم في الثأر من المعتدين، ولكن ما كاد البربر يتأكد من النوايا الحسنة للفاتحين المسلمين، ومن صدق الرسالة السماوية التي يحملونها إليهم بكل تجرد وبدون أي غرض في الاحتلال والاستغلال..حتى دخل البربر في الدين الجديد أفواجا وكمّلوا مسيرة الفتح جنبا إلى جنب مع الفاتحين العرب"⁽³⁾.

ظل المسلمون يطمحون دوما إلى الفتوحات الإسلامية من أجل نشر الدين الإسلامي الحنيف متشبعين بروح الجهاد والإحساس بالمسؤولية تجاه هذا الأمر. وقد كرّس الخلفاء الراشدون جزءا كبيرا من حلمهم في تعزيز أمور

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي. ج.1. ص:53.

(2) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(3) أحمد بن نعمان: نفسية الشعب الجزائري. دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع. الجزائر 1994. ص:54.

الفتوحات. فمن ربوع الجزيرة العربية إلى الشام في عصر الصديق إلى الشمال الإفريقي في عصر عمر. إذ أرسل ابن العاص و " كان من الطبيعي أن يفكر عمر بن العاص في الاستيلاء على برقة بعد فراغه من الاستيلاء على الإسكندرية وتمام جلاء الروم عن مصر لأنه كان ميالا بطبعه إلى مواصلة الفتح والغزو، لا يكاد يفرغ من إقليم حتى يشرع في إعداد العدة لفتح ما يليه: لم يكد يفرغ من فتح فلسطين حتى شرع يمهد لفتح مصر، ولم يكد يفرغ من مصر حتى شرع في السير إلى برقة، وسنراه بعد الفراغ من برقة يسير إلى طرابلس ثم يستأذن في فتح افريقية كما فعل قبل دخوله مصر".⁽¹⁾ وينتهي دور ابن العاص وهو دور تأسيسي ساهم في إرساء دعائم الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي، على أرض كانت المقاومة فيها قليلة، وكان تموقعه قريبا دوما من الساحل لا موعلا فيه، وربما هذا ما لم يفعله الكثير من الفاتحين الذين جاءوا من بعده ⁽²⁾. "أما طرابلس وما يليها فالراجح أنها ارتدت عن طاعة العرب بعيد انصرافهم عنها، ويغلب أن يكون عقبة قد أهمل شأنها ولم يعن بأن يحفظها للمسلمين..." ⁽³⁾. ويستمر الفتح الإسلامي بعد ذلك فيأتي فاتح آخر هو ابن سعد الذي بلا بلاء حسنا وقد " أصبح عبد الله بن سعد بن أبي سرح عاملا على مصر منذ سنة 25هـ، مطلق اليد في شؤونها المالية والإدارية بعد عزل عمرو عنها، وأصبح - تبعا لذلك - حاكما على ما بقي للمسلمين من فتوحهم في

(1) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب. مكتبة الثقافة الدينية. دت. ص: 52.

(2) المرجع نفسه. ص: 69.

(3) المرجع نفسه. ص: 77/76.

إفريقية، على من يخرج من الجند لإكمال الفتح فيها، وهذا هو الوضع السياسي الأول لإفريقية: إذ اعتبرت جزءاً ملحقاً بولاية مصر يحكمها عامل مصر، يجبي خراجها ويقود جندها".⁽¹⁾ ومع إصرار عثمان بن عفان استمر "يدعو الناس لغزو إفريقية بضعة أيام، وأن المتطوعين كانوا يتوافدون إلى الجرف على ثلاثة أيام من المدينة، وكان لا يني يشجع الناس على التطوع، فأعان الجيش بألف بعير من ماله: يحمل عليها ضعفاء الناس، وحمل على خيل، وفرق السلاح وأمر الناس بأعطياتهم وذلك في المحرم سنة 27هـ. فلما اكتمل الجيش خطب عثمان الناس ورغبهم في الجهاد، وقال لهم: "لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم على أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، واستودعتكم الله".⁽²⁾ ولمارجع معاوية بن حديج في أوائل سنة 48هـ، شرع عقبة في المسير سنة 49هـ. وبعده جاء أبو المهاجر دينار. ولما تولى يزيد بن معاوية الخلافة ولى عقبة مرة ثانية عام 62هـ. وبعده جاء زهير بن قيس في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عام 69هـ وقتل كسيلة وهزم جيوشه كما استشهد زهير عندما تدخلت جيوش الروم. وتأتي ولاية حسان بن النعمان في عهد الخليفة نفسه وجهاز جيشاً جراراً ودخل إفريقية سنة 74هـ. ويتدعم الفتح الإسلامي فيما بعد بالفتح الإسلامي الشهير موسى بن نصير الذي أوفده الوليد بن عبد الملك سنة 85هـ وفتح المغرب الأقصى. وقد أوفد الفاتح العربي الكبير طارق بن زياد إلى الأندلس عام 92هـ. لقد كانت هناك إرادة مشتركة بين القيادة الإسلامية المتمثلة في الخلافة وبين سكان الشمال الإفريقي في بناء مجتمع عربي إسلامي.

(1) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب. مكتبة الثقافة الدينية. دت. ص: 78/77.

(2) المرجع نفسه. ص: 82.

ويمكن أن نجل أسباب سرعة انتشار الإسلام بين سكان البربر إلى: سرعة إدراك البربر لمعاني الإسلام خاصة المساواة والعدل والحرية. وتمثيل المسلمين الفاتحين لتلك المعاني فكان له وقع نفسي كبير على البربر. وكذلك عدم اعتلاء الفاتحين على سكان المناطق التي فتحوها. وتشابه الأمزجة بين العرب والبربر مما يرجح فرضية أن البربر من أصل عربي. كما نجد أن سياسة الفتح الإسلامي اعتمدت إشراك السكان الأصليين في تسير شؤون بلادهم. ثم إن العرب قبل كل هذا قضوا على الاحتلال البيزنطي الذي ضيق الخناق على نفوس البرابرة، ونهب ثرواتهم.⁽¹⁾

وتجدر بنا الإشارة إلى أن مسيرة الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي امتدت على مراحل، وهذه المراحل تراوحت بين الرخاء والاضطراب، نتيجة لعوامل تاريخية مختلفة ومتعددة. كأن نجد استعار حدة الصراع والقتال بين قادة برابرة وفاتحين مسلمين؛ بسبب عدم الإذعان للحكم الإسلامي، ولعل التاريخ ما يزال يحفظ في ذاكرته الحروب الضروسة بين الكاهنة وحسان بن النعمان. وبين كسيلة وعقبة.

وأهم المراحل التي مر بها الفتح الإسلامي هي: مرحلة القادة الفاتحين والولاء، ومرحلة الإمارات المستقلة. المرحلة الأولى تمتد من سنة 27هـ وتنتهي سنة 184. ثم تبدأ مراحل الإمارات (أو الدويلات) المستقلة انطلاقاً من الدولة الرستمية وانتهاء بالدولة الموحدية. فالدولة الرستمية امتد حكمها من 160هـ إلى 296هـ. وأسسها الإمام عبد الرحمن بن رستم ومقرها تيهرت. ومذهبها إياضي. ثم جاءت الدولة الإدريسية من 172هـ إلى 311هـ. ومؤسسها هو إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن علي بن أبي طالب. بالمغرب

(1) أحمد بن نعمان: نفسية الشعب الجزائري. ص: 56/55.

الأقصى. بدأت في المغرب الأقصى ثم امتدت حدودها إلى الجزائر. ومذهبها شيعي. وجاءت الدولة الأغلبية من 184هـ إلى 296هـ. وكانت تابعة للعباسيين، وأسسها إبراهيم بن الأغلب التميمي. وبعده الدولة العبيدية الفاطمية من 296هـ إلى 387هـ. والمؤسس هو عبيد الله المهدي. ثم الدولة الزييرية الصنهاجية من 361هـ إلى 405هـ. وزعيمها زيري بن حماد الصنهاجي. وصنهاجة قبيلة بربرية. ثم تأتي الدولة الحمادية من 405هـ إلى 547هـ. ومؤسسها حماد بن بُلُكين بن زيري الصنهاجي فهي شقيقة دولة صنهاجة ولكن تختلف معها في رفض التشيع، وكانت تدعو للخلافة العباسية. وبعده الدولة المرابطية ومؤسسها هو يحيى بن إبراهيم الجدّالي وامتد حكمها من 472هـ إلى 539هـ. وانتقل الحكم بعد وفاة يحيى إلى أخيه أبي بكر ثم إلى ابن عمه القائد الشهير يوسف بن تاشفين. والذي استولى على المغرب فيما بعد. ويأتي الموحدون. والمؤسس هو محمد بن تومرت من (ما يوافق 1130م تحول إلى الهجري). وبعد انهيار دولة الموحيدين، تقوم مكانها ثلاث دويلات هي: الحفصية والزيانية والمرينية. فالفترة الحفصية امتدت من 627هـ إلى 943هـ. وتنسب إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي نسبة إلى قبيلة هنتاتة بالمغرب الأقصى. وتأتي الدولة المرينية من 668هـ إلى 796هـ. وهي من قبيلة زناتة وأميرهم هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق. ثم جاءت الدولة العبد الوادية الزيانية من 633هـ إلى 962هـ. وزعيمها هو يغمراسن بن زيان. وبعد هذه الدويلات تأتي حملات الإسبان والأتراك. ثم الاحتلال الفرنسي.⁽¹⁾

لقد أثبت الكثير من المؤرخين والباحثين في التاريخ و شؤون الاجتماع، أن

(1) للتوسع أكثر في هذه المراحل التاريخية ينظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. لابن عذاري. وفتح العرب للمغرب. لحسين مؤنس. وتاريخ الجزائر العام للجيلالي.

الشعب البربري تقارب وجدانيا مع كل من الفينيقيين والعرب وذلك لأن الأرومة واحدة. ويستحضر الشيخ مبارك الملي في كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث قول البيروني " احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم. ويوجّه ذلك بعضهم بأن العرب والفينيقيين متقاربون في اللغة، ومتحدون في الأصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطباع". ثم يأتي إلى المعارضة بقوله: " ومراده أن الفينيقيين أثروا في البربر وبقي تأثيرهم ذلك إلى أن جاء إخوانهم العرب فلحقوه. وهذا غير صحيح على إطلاقه. فأنا مع اعترافنا بمحافظة البربر على ما أخذوه عن قرطاجنة لا نعتقد أن البربر صاروا فينيقيين... فهم وإن أخذوا حظا وافرا من حياة البونيقين قد صبغوه بالصبغة البربرية." (1). فكان أن أحسنوا المعاشرة مع الفينيقيين أهل التجارة والأسطول البحري الطافي في حوض المتوسط، ومع العرب والفاثين المسلمين باعتبار أن الجنس غير العربي موجود فيهم، وخير مثال الفاتح المغوار طارق بن زياد الذي فتح الأندلس وتحت لوائه الكثير من جنود البربر. نقول مثل هذا الكلام؛ لأن هناك الكثير من المغرضين الذين يريدون سلخ المجتمع من هويته الحضارية، وذلك بزرع الشكوك في مضمون تلك الهوية واستتبات بذرة العداء للفاثين المسلمين قديما، واعتبارهم كباقي الغزاة المستبدين من الرومان والوندال وغيرهم... ويستدلون بالحروب الكبيرة التي قادها البرابرة ضد المسلمين " ذلك بأن روح البربر الديمقراطية كانت تأبى، على الدوام، الخضوع للعرب والاستسلام لمشيئتهم. فمنذ أيام الفتح الأولى والأرض الإفريقية مرتع خصب للثورات التي يعزوها المؤرخون المسلمون إلى

(1) مبارك بن محمد الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث. تقديم وتصحيح: محمد الملي. ج2. المؤسسة الوطنية للكتاب. دت. ص: 42/41.

الخوارج".⁽¹⁾ خاصة وأن التكتل العشائري ضارب في الوجدان. " وليس من شك في أن ما لقيه هؤلاء الخوارج من أذن مصغية ينهض دليلا على ثورة الروح القومية، عند البربر، في وجه سيادة العرب. ومن هنا كان في ميسور أيما داعية يتوجه في دعوته إلى مشاعر البربر القومية ويحملهم على مناهضة السلطة القائمة على تأييدهم البعيد ونصرتهم البالغة".⁽²⁾ لقد فر قوم من خوارج العراق إلى المغرب في أيام هشام بن عبد الملك، وسعوا إلى بث مبادئهم، فقبل الأمر بالرضا عند البربر، خاصة وأن من تعاليمهم أن الخليفة لا يجب أن يكون من العرب، وقد استشعر سكان البربر ظلم وبطش الوالي عبيد الله بن الحباب. وكان خوارج المغرب على مذهب الإباضية والصفيرية* فحدثت عصبية بربرية كبرى⁽³⁾. واستمرار القلاقل في المغرب كان نتيجة بعض الظلم الممارس عليهم من بعض الولاة، فلما ولي عمر بن عبد الله المرادي على طنجة وما والاها، و " أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعُشُر، وأراد تخميس البربر... فكان فعله الذميمة هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل"⁽⁴⁾. وتلك سلوكات لا تمثل الإسلام" ولو تساءل أولئك الذين حاولوا الفصل بين أصل البربر وبين العرب، هل حدث مثل هذا عندما قدم العرب الفاتحون؟ لقد امتزجوا جميعا، وبسرعة عجيبة بأشقائهم الفاتحين الحاملين لمبادئ الإسلام العادلة والذين جاؤوهم من أرض الأجداد وأصبحوا بين عشية

(1) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. ت: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي. ط5. دار العلم للملايين. بيروت 1968. ص: 316.

(2) المرجع نفسه. ص: 316 وما بعدها.

(*) الإباضية هم أصحاب عبد الله بن أباض الذي خرج أيام مروان بن محمد فوجه إليه عبد الملك بن محمد عطية فقاتله بنبالة. والصفيرية هم أصحاب زياد بن الأصفر. للاستزادة ينظر الملل والنحل للشهرستاني. ص: 131 وما بعدها.

(3) أحمد أمين: ظهر الإسلام. ج1. ط5. دار الكتاب العربي. دت. ص: 293.

(4) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ج1. تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان، وإيفي بروفنسال. ط3. دار الثقافة. بيروت 1983. ص: 52.

وضحاها أمة واحدة يدينون بدين واحد، هو الإسلام، ويتكلمون لغة واحدة هي العربية، ويسعون إلى هدف واحد يتمثل في نشر المبادئ وتعميم الأمن والسلام." (1). إن التاريخ دائما يحدثنا عن الأنماط البشرية الغالبة والمغلوبة، التابعة والمتبوعة وكذا التي تتبع وتعصي وتخالف. ولئن وصف شعب البربر بالفوضى وعدم الانصياع إلى القادة في أحيان متعددة، فإن ذلك نابع من ظروف ومعطيات؛ فالواقع " أن البربر كانوا يميلون إلى الطاعة والنظام حينما تكون السلطة القائمة بالقيروان عادلة منتظمة ومهتمة بمصالح الرعايا، وأما حينما تكون السلطة جائرة يتواشب زعمائها على الحكم، فإنهم يتحركون للثورة وينظمون لدعاة الشغب." (2). ولا ننسى أمرا على غاية من الأهمية وهو أنه في الخلافة الأموية ظهرت نزعة عصبية تدعو إلى تفضيل العرب على غيرهم من الشعوب الداخلة في الإسلام مما أوغر في صدور البرابرة، ومختلف الأجناس الأخرى الرغبة في الانتفاضة وشق عصا الطاعة. ولكن مع كل هذا استمر إصرار المستشرقين على اعتبار الفتوحات الإسلامية للجزائر استعمارا عربيا، وتتم التسمية عن اعتراف بأن وجود الأقوام الأوربية في القديم والحديث في هذا البلد كان استعمارا بالمعنى الحقيقي للكلمة وليس نشرا للحضارة. (3). إن المسلمين فتحوا البلاد ولم يحكموها بل تركوا أهلها في مناصب الدولة ليحكموا بلدهم بعد أن دخلوا في دين الله أفواجا. فلما كان المسلمون مستعمرين فلماذا بقي الإسلام راسخا في الجزائر دون الأشكال المختلفة الأخرى من الاستعمار التي عرفها البلد قبل الفتوحات الإسلامية

(1) بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق القيرواني. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1981. ص: 16.

(2) رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته. ط3. شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. ص: 21.

(3) أحمد بن نعمان: نفسية الشعب الجزائري. ص: 56.

وبعدها، ثم إذا صح أن العرب الفاتحين كانوا دهاة في استعمارهم للجزائر.. فأبي فائدة للمستعمر أن يحتل بلدا ثم لا يحكمها قط؟" (1). لقد كانت سرعة الانقلاب التي أدهشت الكثير في ذلك الوقت، في تقبل البرابرة للمعتقد وللمسلمين الفاتحين ويرى مبارك الملي أن سبب ذلك جاء " من غير مساعدة خارجية. ذلك أنهم [يقصد بهم الفاتحين] لم يأتوا إلى هذا الوطن لغرض سياسي أو تجاري أو استعماري. وإنما أتوا لنشر مبدأ فيه سعادة البشر في الحياتين. وأيدوا صدقهم بقسطهم ". (2). إن البراهين التي تمكنا من تنفيذ مثل هذه الادعاءات كثيرة، ولسنا بحاجة إليها كلها الآن لأن المجال ليس مجال اتهام ودفاع. ونقول في الأخير كما قال محمد دبوز: " لبس المغرب حلتة العربية الزاهية العظيمة فصار في تفكيره، وعاداته، ولسانه، وحضارته عربيا ينتسب إلى حضارة الإسلام وأرومته الكبرى؛ وتآخى مع الأمة الإسلامية فصار جزءا منها". (3).

وهكذا رأينا كيف أن هذا الدين الذي استوعبته النفوس البربرية، واستأنست به. راحت تحاول فهمه والتفقه فيه، منطلقة من بوابة اللغة العربية التي سهّلت لهم هذا الفهم، بل وأخرجت للعالم العربي والإسلامي الكثير من المتفقيين من رجال الدين والعلم والأدب ولعل أشهرهم ابن خلدون وابن رشيق والقرطاجني وغيرهم... ولا يتسع المجال هنا لذكر الكثير منهم. وسنسعى إلى معرفة بعض الحثيات المحيطة بتعلم اللغة العربية من قبل شعب بربري لم يكن لسانه يلين لها. ولكن مع مرور الوقت أصبح ابنا لها.

(1) أحمد بن نعمان: نفسية الشعب الجزائري. ص: 57.

(2) مبارك الملي تاريخ الجزائر في القديم والحديث / تقديم وتصحيح محمد بن الملي ج2 المؤسسة الوطنية للكتاب دون ط . ص 42.

(3) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ج1. ص: 453.

تلعب اللغة دوراً مهماً في قيام المجتمعات البشرية. وهي عبارة عن كائن حي ينمو، ويتطور بفعل عوامل ثقافية واجتماعية ونفسية معينة. قد تكون عاملاً لبقائها، وقد تذهب بها في طريق الزوال والاندثار. ولعل التاريخ احتفظ بالكثير من اللغات، وأضاع الكثير منها في المقابل. ونجد العديد من اللغات بدأت تستعيد عافيتها، وتسعى لصنع مكانتها من جديد في خضم الحضور الإنساني. يقول ابن خلدون في مقدمته: "اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني المقصودة وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة." (1). والحق أن المتتبع لمسار الحقب الإسلامية القديمة، يكتشف أن سرعة تقبل الأجناس الأخرى للغة العربية لافت للانتباه. ومن ذلك يسعون جاهدين في تعلمها وتحصيلها؛ لأنها لغة المعارف والعلوم، ولأن هذه العلوم كانت تحيط في مجملها بالقرآن وهذا الأخير لغته العربية، ومن "الواقع الغريب أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وإن

(1) ابن خلدون: المقدمة. تحقيق: درويش جويدي. ط1. المكتبة العصرية. بيروت 2000. ص: 554.

كان منهم العربي في نسبه، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعته عربي". (1). وعلى الرغم من أننا نميل مع ابن خلدون في طرحه لقضية العلم والتعلم، واكتساب الملكة، إلا أننا لا نؤيده في سياق التعرض إلى اكتساب الذوق لدى الشعوب الأعجمية الداخلة في الإسلام الطامعة في تعلم اللغة العربية؛ إذ يقول: "وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل، بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك، بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربى بين أحيائهم. والقوانين بمعزل عن ذلك. واستعير لهذه الملكة، عندما ترسخ وتستقر، اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان والذوق إنما هو محل لإدراك الطعوم، استعير لها اسمه... وإذا تبين لك ذلك، علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئین عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله، كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها". (2). لقد تعرضنا إلى الانصهار الذي حصل بين البرابرة والفينيقيين اجتماعيا واقتصاديا، وذلك أدى إلى الانصهار اللغوي أيضا؛ ولا شك في أن السبب هو التقارب الوجداني بينهما" وكانت اللغة البونيقية لما داخلها من البربرية ولهجة البربر، ولعذوبتها ورشاققتها، وخفتها على اللسان، وقد راقى البربر وأعجبوا بها، ورأوها مفتاح العلم المتعطشين إليه، وسبب الاتصال بالبونيقين الذين يعجبون بحضارتهم، فأقبلوا عليها، فتعلموها". (3). إننا نريد أن نثبت السرعة في التقبل التي كان البرابرة يملكونها إذا حصل لهم

(1) ابن خلدون: المقدمة. ص: 541.

(2) المرجع نفسه. ص: 562.

(3) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير. ج1. ص: 149.

التقبل. وكذلك فعلوا عندما التقوا باللغة العربية وحصل لهم التقبل. " إن اللغة قدرة ذهنية تتكون من مجموع المعارف اللغوية، بما فيها المعاني والمفردات والقواعد التي تنتظمها جميعا. تتولد وتنمو في ذهن الفرد ناطق اللغة أو مستعملها فتمكنه من إنتاج عبارات لغته كلاما أو كتابة، كما تمكنه من فهم مضامين ما ينتجه من هذه العبارات، وبذلك توجد الصلة بين فكره وأفكار الآخرين." (1). ومزايا اللغة متعددة، فهي تحقق التخابط اليومي بين الأفراد والجماعات، تحقيقا للتعاون، ومد الروابط الإنسانية ومنه تحقيق شبكة اجتماعية متعاونة وتشترك في مصير إنساني واحد، " وبالتالي فاللغة تصبح أساسا لتوفير الحماية والرعاية للإنسان بين أفراد مجموعته، وعاملا مهما تتحقق منافعها ورغباته وتسهل سبل تنشئته وتيسر أمور عيشه في إطار هذه المجموعة." (2). لقد ألمحنا في مواطن سابقة إلى أن هناك تقاربا وجدانيا نفسانيا بين البربر والفينيقيين على اعتبار الأرومة الواحدة التي ينحدرون منها. وفي هذا الصدد، يرى الباحث محي الدين المشرفي في كتابه: افريقية الشمالية في العصر القديم، وفق ما يورده العربي دحو، قائلا: " فإذا تذكرت أن البربر والقرطاجنيين من أرومة سامية، يرجع أصلهم جميعا إلى المشرق، وثبت لديك - بناء على ما تقدم من البراهين التي لا تقبل الجدل أن القرطاجنيين من قبائل كنعان العربية وأن لغتهم هي اللغة العربية - عرفت لماذا أقبلت الطبقات البربرية على تعلم اللسان القرطاجني إقبالا عظيما وتبينت لك الأسباب التي ساعدت على انتشار العربية بسرعة كبيرة في بلاد المغرب بعدما خضعت للمسلمين، وهذا الذي حدا ببعض المؤرخين إلى التصريح عما يلي عند تناوله الكلام على سرعة

(1) أحمد محمد المعتوق. الحصيلة اللغوية. أهميتها-مصادرها-وسائل ترميمها. سلسلة عالم المعرفة 212. ربيع الأول

1417هـ - أغسطس/آب 1996.. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت. ص 33.

(2) المرجع نفسه. ص: 35.

اضمحلال اللغة اللاتينية من أفريقية الشمالية فقال: " لعل السبب في انتشار اللغة العربية في المغرب بمثل هذه السرعة واضمحلال اللغة اللاتينية منها يرجع إلى أن عددا عظيما من الأهالي في هذه البلاد كانوا يتخاطبون باللغة القرطاجنية..." (1). ولئن كان توافد الفاتحين إلى بلاد المغرب بكثرة لدرجة السأم أحيانا من الكثير من التغييرات التي تحدث في صفوف هؤلاء القادة من قبل الحكام، إلا أن درجات تقبل سكان المغرب لهم كان بالقدر الذي يحسن فيه ذلك القائد التصرف " إن موسى بن نصير قد أجدى بعد عقبة بن نافع في المغرب جماعات الفقهاء التي يرسلها في النواحي التي يغزوها، فتفقه البربر في الدين وتنتشر فيهم القرآن وتعلمهم العربية" (2). إن التراكمات التاريخية كانت كبيرة عليهم، وثقلت أكثر بفعل الممارسات الدينية في بعض الأحيان، من جراء التعسف المسيحي في عهد الرومانيين والبيزنطيين، فلما جاء المسلمون، اعتبر البربر الأمر سيان؛ فالتغزو له وجه واحد والاحتلال هو ظلم واستبداد أنى كان. إن الألفة والتآلف لم يحدثا دفعة واحدة، وإنما كانت تنتشر تباعا؛ والواقع أن البربر لم يكونوا يرغبون في طرد الفاتحين من بلدانهم، وإنما فعلوا عكس ذلك؛ بل حتى قادتهم الكبار لم يفعلوا هذا " ومما يؤيد ذلك أن كسيلة، بعد أن قتل عقبة واستولى على القيروان، استبقى العرب تحت حمايته، وأحسن إليهم كثيرا، وكان في إمكانه أن يطردهم منها. وكذلك فعلت الكاهنة، فإنها كانت تعترض بالعرب في سياستها بعد انتصارها على حسان بن النعمان، وكانت تؤثرهم على أبناء قومها بالإعزاز والإكرام." (3).

(1) العربي دحو: مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم. ديوان المطبوعات الجامعية. دت. ص: 53.

(2) محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983. ص: 77.

(3) رابح بونار: المغرب العربي. تاريخه وثقافته. ص: 21.

إنها استجابة من ورائها دوافع نفسية تختزن ترسبات الأصل أو التقارب؛ " ولم تكد تمر فترة تقل عن خمسين سنة، حتى وجدنا المغاربة من حدود ليبيا الشرقية وحتى شواطئ الأطلسي، وقد صاروا جميعا مسلمين وعربا. يتحدثون العربية ويكتبونها ويخطبون بها بفصاحة تتدر حتى بين خطباء الجزيرة العربية أو بين الغساسنة بالشام والمناذرة بالعراق.."(1). ولعل الأسباب يضيف عثمان سعدي- تكمن في أصلهم السامي، أي العربي القديم.(2). والكثير من الدارسين للتاريخ المغربي القديم يتفقون في هذا الأمر. لقد قال بيروني: " احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم؛ ويوجه ذلك بعضهم بأن العرب والفينيقيين متقاربون في اللغة، ومتحدرون في الأصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع." (3). إن سكان الشمال الإفريقي وإن وافقنا ابن خلدون في كون لغتهم تخالطها العجمة إلا أننا لا يمكن أن نجعل منها ضعفا، خاصة وأن شعراء أصبحوا بشعرهم ينافسون شعراء المشرق مثلا، والأسماء كثيرة ومتعددة منها الشاعر الذي يعتبر أول مولود مغربي وهو عبد الرحمن بن زياد. والشاعر الجزائري بكر بن حماد، والشاعر المسيلي ابن رشيق الذي يعتبر كتابه أيضا في النقد من أمهر المؤلفات. وقد تجسد هذا التجاوب الكبير اللغوي بشكل لافت للانتباه من خلال الرحلات العلمية التي كان يقوم بها العلماء المشاركة من حين إلى آخر، وكذلك من خلال المنجزات والمراكز العلمية التي أسسها الخلفاء والساسة المسلمون. وأيضا " كان مما عمل على تثبيت قدم العروبة في البربر ما انتشر بينهم من طوائف

(1) عثمان سعدي: عروبة الجزائر. ص: 83

(2) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(3) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام. ج.1. ص: 189.

الجند العربي واختلاطهم بالوافدين عليهم من عرب المدينة وعرب الشام لغزو الأندلس؛ وما بثه الأمراء في القبائل من معلمي القرآن والفقه". (1). والتزم الخلفاء بالإرسال والتوجيه إلى بلاد المغرب العربي لما لهذه العملية من تأثير كبير على سير البربر في طريق تعلم العربية. فقد وجه عمر بن عبد العزيز عشرة من وجوه التابعين لتتقيف البربر وإرشادهم إلى شرائع الإسلام وتعاليمه. والولاة أنفسهم مهدوا السبيل لتقدم هذه الثقافة. فقد جعل حسان الغساني اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد، وأمر موسى بن نصير العرب أن يعلموا البربر لغة القرآن والفقه، وترك سبعة عشر رجلاً من العرب للغرض نفسه. (2). إننا أسلفنا قبل هذا، إلى أن فعل الاحتكاك كانت نتائجه فورية؛ " فالبربر، رغم تمسكهم بتمازغت، أكبوا على تعلم اللغة العربية، لغة القرآن والدين الجديد، وأعانهم على ذلك الإنصات إلى دروس الدعاة والفقهاء والاحتكاك بالعنصر العربي". (3). ومحاولة إيجاد وضع حضاري جديد، كان يفترض صنع وسائل للإقناع تلقى هوى في النفس، وعلوقاً بالقلب، " وبمرور الزمان ظهر جيل جديد نشأ تحت حكم العرب ومازحهم في أوضاعهم وتعلم لسانهم وقلد أخلاقهم. وأخذ الدعاة يسامرون هذا الجيل بأخبار الجاهلية والإسلام، ويروون له ما يحفظون من الأشعار في أيام العرب". (4).

ولعل الشيء الذي نحن مطالبون بتبيينه هو ارتباط اللغة بالرسالة السماوية، و " إذا كان لكل شيء أصوله وأسبابه، فإن الحضارة الإسلامية في هذا السبيل لها أصولها وأسبابها التي نشأت، ومن أعماقها نبعت ثم ما لبثت أن

(1) عبد الرحمان بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام. ج.1. ص: 188 .

(2) محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص: 23.

(3) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

(4) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

نمت أعوادها وترعرعت أغصانها ونضجت ثمارها، فقدمت مبادئ إنسانية لها ذروة رفيعة من القيم، ومعارف عالمية دانّت لها العقول بالفضل والتفتح واطراد النمو المتحرر الموصول على توالي العصور بحيث كونت منارات للعقل البشري في محيط المعرفة الإنسانية على مر السنين". (1). وربما تألق اللغة العربية وخلودها عبر مختلف السنين والحقب، هو الذي يجعل ترسيخها في الأذهان والعقول أمراً مقبولاً؛ وإلا كيف تزدهر اللغة السنسكريتية واللاتينية القديمة مثلاً ولكنها لا تستطيع مقاومة نوائب الدهر وحدثائه. وفي الأخير نقول ما قاله الدكتور أحمد يوسف من أن " المؤكد تاريخياً أن الثقافة الأمازيغية جزء لا يتجزأ من مكونات الثقافة الجزائرية التي ينبغي أن تكون عنصر إثراء لا يخضع إلى الدعوات الانعزالية التي تغذيها النخبة الفرنكوفيلية التي لا تخفي ولاءها اللساني للفرنسية وثقافتها، ولا سيما بعض النخب التي تتادي بحدائه تحمل في طياتها حيناً مبطناً للرجوع للثقافة العرقية بدعوة الدفاع عن أصول الثقافة الشعبية والعربية الدارجة، وتقف وراء هذه المجموعات نزعات عنصرية تحمل مشروعا انعزالياً يحاول أن يستفيد من الأخطاء السياسية التي لم تحسن التعامل مع مكونات الثقافة الجزائرية تحت النظرة الأحادية". (2).

إننا أسسنا في هذا الفصل الأول لجزائر القدم التي كان وجودها تكوينياً، فراحت تنهل من روافد الأصل الأول فحققت انتماءها الجغرافي والإنساني والاجتماعي والثقافي والحضاري. وسنسعى في الفصل الثاني إلى تبيان حركية التاريخ الحديث التي أصابها بعض التصدع بسبب الاستعمار الغاشم، فعضت على مقوماتها بالنواجز؛ لأن الفعل الاستعماري كرّس جهده لتدمير هذا الانتماء.

(1) مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية. 1- كتاب الشعر. ط2. دار الكتاب اللبناني. بيروت 1974. ص: 21.

(2) أحمد يوسف: يتم النص. الجينولوجيا الضائعة. ط1. منشورات الاختلاف. 2002. ص: 39.

لذلك، نجد في شعر ما بعد الاستقلال - الذي نعتزم دراسته- أنساقا تطرح إشكالية الانتماء والبحث عن الأصل وعن الهوية التي تعترىها الشوائب. ويبقى هذا الهاجس ملازما للكثير من القصائد الشعرية، لا لشيء إلا لأن الوجدان قد خلخلته الهزات، وأوشك على التحطّم، فراح الشاعر يحاول استعادة العافية الوجدانية.

الفصل الثاني: / الاستقلال وإشكالية المسار الثقافي للمجتمع

- 01 / الغد الاشتراكي الموعود
- 02 / بداية الانفتاح على الأيديولوجيات الأخرى
- 03 / حوار الأيديولوجيات

إن الشعوب لا يأتي استقلالها من فراغ، ولا يمنح على الأطباق، وإنما يؤخذ أخذاً، وتأتي الحرية من تحت ظلال السيوف. ولقد كان في المسيرة الوطنية الجزائرية المثل الأعلى، والنموذج الأمثل في تحقيق الاستقلال، واسترجاع السيادة، والحق في الحياة برخاء واطمئنان. واستمد الشعب هويته من لدن ما يملك من امتداد تاريخي ضارب في التوغل مكلل بمقومات لا يمكن أن تمحي في يوم من الأيام. ولعل سمة القدم التي تحيط بالوجود الجزائري عبر مراحل التاريخ تؤهله لذلك؛ إذ افتك مسوغات استمراريته افتكاكا وعض عليها بنواذجه.

إن بزوغ الغد المشرق لم يتأت بيسير جهد، أو قلة تضحية، ولكن بالاستماتة والمغالبة، والمجاهدة، وتجدد قوى الوعي الوطني واستمرارها. ولا يختلف الباحثون في المسيرة التاريخية الجزائرية، في ظل الاستعمار، في كون حدث الثامن ماي 1945 من أهم الأحداث التي ألهمت يقظة الشعب وتمكن الإحساس بالمسؤولية في قلبه. فكان أن وقع بالدم الذي سال، عزمه على افتكاك الاستقلال وطرد فرنسا. ويُعدُّ الحدث " نقطة تحول هامة أولا في الرأي العام الجزائري، وفي الحركة الوطنية الجزائرية بكاملها إذ نجد أن الجزائريين وخاصة العناصر الوطنية بدأت منذ هذه الحوادث في وسيلة عملية تهدف أولا إلى القضاء على آثار هذه الحوادث المؤلمة، وتهدف أساسا إلى تحرير البلاد

بطريقة، غير الطريقة السلمية المعهودة منذ الحرب العالمية إلى الآن". (1). ولا يحتاج الفرد الجزائري لمن يذكره بأن واقع الوجود الفرنسي لم يكن بريئا، ولم يكن حضاريا مثلما ادعته وروجت له في إعلامها، وفي أدبياتها. إن "الفرنسيين لم يكتفوا بهزيمة، ونفي، وتشريد البورجوازية الوطنية، بل ضموا الجزائر نفسها إلى فرنسا بقرار تعسفي سنة 1834. وهكذا فقد نتج عن هذا القرار المحو التام للكيان الجزائري مع كل ما تستلزمه هذه السياسة من نتائج: محو اللغة، والتاريخ، والحكومة، والرموز الوطنية الأخرى". (2) وقد علل الشاعر المصري الكبير أحمد شوقي نتائج المحو بطريقة استهزائية عندما زار الجزائر في بداية القرن العشرين حيث مكث أربعين يوما للاستشفاء، وحينها قال: ولا عيب فيها [الجزائر] سوى أنها قد مسخت مسخا. فقد عهدت مساح الأحمية فيها يستتكف النطق بالعربية. وإذا خاطبته بها، لا يجيبك إلا بالفرنسوية" (3). وكذلك الأمر في ما نشره الكاتب المصري سلامة موسى سنة 1930، بعدما زار الجزائر: إننا لا نجد في الجزائر أية حركة وطنية (*). بينما نجد في الهند نهضة للاستقلال هي غاية في القوة. وذلك لأن الفرنسيين قتلوا الروح الوطنية في الجزائر بمقاومة اللغة". (4). وكانت المسيرة صعبة، ولم يكن في وسع الفرنسيين أن يحققوا مزاعمهم. ولم يكن في وسع الجزائريين التخلي عن

(1) أزراج عمر: أحاديث في الفكر والأدب. ط1. دار البعث. قسنطينة 1984. ص: 144.

(2) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930). ج2. ط2. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1983. ص: 58.

(3) فهمي هويدي: عريضة اتهام مغربية ضد المشاركة. مجلة الدوحة. ع1232. مارس سنة 1986. ص11.

(4) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

(*) سلامة موسى لم يكن يرى من الجزائر إلا القشرة الخارجية. والواقع أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت في نمو وتصاعد في هذه الحقبة بالذات، منها الحقبة التي أقام المستعمر فيها احتفالات قرن على وجوده في الجزائر وتفاؤله بالبقاء الأبدي فيها، وهو ما أجد الروح الوطنية في أعماق الجزائريين، فكانت جمعية العلماء المسلمين 1931. وكان حزب الشعب 1937. وقبله نجم شمال إفريقيا...

مقومات شخصيتهم وما يزرع به وجدانهم من مآثر الكرامة والاعتزاز بالنفس؛ إذ " بعد استسلام الأمير عبد القادر، قال الجزائريون للجنرال (لامورسيير) بأن "فرنسا ستمضي قدما، ولكنها ستضطر ذات يوم إلى التراجع، وعندئذ سنعود". إن هذا الوعد قد تردد وبقي حيا في الذاكرة خلال تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية. (1). وتمضي السنون والعقليات الجزائرية تتطور مع كل حدث تمر به البلاد؛ وتأتي الحرب العالمية الأولى لتضع موازينها ومعاييرها، ويزج بالفرد الجزائري في تلك الحرب وهو لم يكن صانعها، وعند النظر من بعيد، نجد أن عقد العشرينيات من القرن العشرين، كان من أكثر العقود حسما في تاريخ الجزائر. فعلى الرغم من أن الحرب لم تحضر أي حل للمشاكل الجزائرية، فإن أحداث الحرب ونتائجها قد أثرت في كل مظهر من مظاهر الحياة تقريبا في الجزائر (2). حدث بفضل هذا الالتقاء احتكاك بين عقليتين، وكان فعل الاستفادة والتعلم محققا من قبل الجزائريين، وهكذا راحوا يستعملون المقارنات بين وضعين؛ وضع يعيشونه داخل الحرب ووضع مترسب داخل الذاكرة التي تحتفظ بكل أشكال الإهانات التي تمارسها السياسة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر؛ وبذلك لم تذهب مشاركة الجزائريين في الحرب مع فرنسا من دون مقابل؛ وإنما مثلت مدرسة أنتجت إحساسا بالزمن من جهة، وتكون شعور اليقظة ومحاولة التغيير من جهة ثانية. " ومن الأفكار الهامة التي تعلمها الجزائريون من الحرب فكرة المساواة، فقد كانوا سمعوا عن هذا المبدأ ولكن لم يمارسوه أبدا. وسواء كانوا جنودا أو عمالا، فإنهم لم يتمتعوا فقط ببعض المساواة مع الفرنسيين، ولكنهم أيضا رأوا تطبيق مبدأ المساواة بين المواطنين الفرنسيين أنفسهم. وهذه الحقيقة ستجعلهم كثيرون النقدي للطريقة الفرنسية في الجزائر عندما يعودون إلى

(1) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية. ج2. ص: 69.

(2) المرجع نفسه. ص: 299-300.

وطنهم". (1). ونضيف إلى هذه الفائدة التي جناها الشعب الجزائري من الحرب قضية تشكل الأحزاب السياسية التي تعددت مشاربها فراح كل منها يطالب بطريقته الخاصة. ويبنى استراتيجيته من منطلقات عقيدية، فيجد بعد ذلك المصفق المؤيد والمعارض الناقم. ولئن كان الاختلاف باديا بين مختلف تلك الاتجاهات إلا أن أغلبها كان يلتقي في مطالب عديدة تتمثل أساسا في الحق في الاستقلال والتتعم بالحرية. إن نشوء الأحزاب كان تفاعليا في مرحلة العشرينات؛ فقد أوجد ذلك الظرف التاريخي الاتجاه المحافظ الذي تزعمه مجموعة من الإقطاعيين الذين خدموا فرنسا، ووجد أيضا الاتجاه المعتدل من قبل النخبة التي انقسمت سنة 1919، ووجد الاتجاه الليبرالي يضم القسم الثاني من النخبة المنقسمة. ثم الاتجاه الإسلامي العربي الذي تزعمه العلماء. (2). بالإضافة إلى أن هناك مدا شيوعيا واشتراكيا في ذلك الوقت خيم على الكثير من الاتجاهات السياسية الدولية؛ خاصة وأن نتائج الثورة البلشفية كانت بادية للعيان، واستطاعت في ذلك الوقت أن تكسب الكثير من المؤيدين المخلصين والداعين إلى تبني الفكرة الشيوعية التي تدعو إلى الثورة وكسر الاستغلال والإقطاع. وتكوين مجتمع لا تسوده الطبقية ولا يحكمه القوي على حساب الضعيف. إذا فمن " بين جميع المذاهب الجديدة التي تسربت إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، كانت الشيوعية أقواها، على الأقل وإن سطحيا. والحق أن الشيوعيين والمشاغبيين الفرنسيين هم الذين كانوا مسئولين على إدخال الفكرة الشيوعية إلى الجزائر. وهناك أحزاب وجماعات فرنسية أخرى جاءت بالاشتراكية، والفاشية، والإنسانية. (3).

(1) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية. ج 2 . ص: 301.

(2) المرجع نفسه. ص: 305.

(3) المرجع نفسه. ص: 349.

ولعل شغب هؤلاء الشيوعيين كان مبالغاً فيه، وكان يمتلك بعض القدرات التي أهّلته لأن يسيطر على عقول الشباب الجزائريين " وكان الحزب الشيوعي الجزائري يتسم بالقوة نتيجة المساندة التي كان يلقاها من نظيره الحزب الشيوعي الفرنسي. هذا الحزب الذي وصل تعداداه مليون منخرط، وأكثر من خمسة ملايين ناخب، و166 نائباً في الجمعية الوطنية الفرنسية. الذي كان يعتبر نفسه حامٍ للاتحاد السوفياتي، لانتصاره على ألمانيا النازية، ونتيجة لذلك انتشرت بوفرة أدبياته في الجزائر وكانت تستهدف بالخصوص-الشباب المثقف". (1). وكان مفعول أفكارهم قويا إلى حد ما؛ ووجد في الساحة الاجتماعية من يستمع ويتقبل ثم يروج بعد ذلك " ولهذا ولع الشباب البربري بالماركسية وكذا بدستور الاتحاد السوفياتي الذي مجد نظام الجمهوريات " الإسلامية": أذربيجان. الأوزباكستان، طاجكستان، إلخ... حيث كانت تؤكد أن كل شعب وكل عرق كان يتمتع بلغته الخاصة بثقافته ويستفيد من " الاستقلالية" في تسير شؤونهم. (2) ومن جهة أخرى كان لاتصال علماء الجزائر بالمشاركة الدور الفعال في تفعيل الحركة الإصلاحية، وتشكيل المنظومة الفكرية التي تسعى إلى تأسيس البناء الحضاري للأمة العربية الإسلامية من المحيط إلى الخليج. ومن ثم " فإن تعاليم المصلحين من رجال الدين في نجد والحجاز وليبية ومصر وسورية تسربت إليهم عن طريق الحج، والرحلة في سبيل العلم، والوقوف على ثمرات المطابع. ولهذا نكاد نستشف، إلى جانب التعاليم الغربية، ملامح بارزة من تيارات نبهت الأذهان في بلدان عربية إسلامية أخرى مجاورة

(1) أحمد بن نعمان: فرنسا والأطروحة البربرية. ط2. شركة دار الأمة 1997. ص 93.

(2) المرجع نفسه. ص 93-94.

للجزائر أو بعيدة عنها." (1) وأهم التيارات الإصلاحية المتمسكة بتعاليم الإسلام التي تأثر بها علماء الجزائر: تيار جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وكذلك التيار الوهابي الذي أثر في الجزائريين عن طريق الحج. لذلك راحت جمعية العلماء المسلمين في مسيرتها الإصلاحية تدعو إلى تكريس الدين الصحيح-لأن فرنسا حاربته بكل ما تملك من وسائل- وكذا محاربة الطريقة لأنها تدخل الدين في متاهات الخرافة والدجل والدروشة...ومن ثم كانت الأسس التي انبنت عليها جمعية العلماء المسلمين : هي أن الإسلام يمجّد العقل ويعدل بين الناس ويتعاش فيه الفقير والغني (2). لقد تباينت الطروحات بين مختلف التيارات الإصلاحية والوطنية والنخبوية. فالإصلاحي كان يعمل لتمكين الشخصية العربية للجزائر والوطني ترسيخ فكرة الاستقلال والتنعم بالحرية (الحركة الإصلاحية أيضا كان هدفها الأعمق هو الاستقلال عن طريق العودة إلى مكونات الذات الوطنية وهي اللغة والدين والتاريخ)، والنخبوي المطالبة بالمساواة مع الفرنسيين والإدماج... إلى غاية الثورة المسلحة التي جاءت نتيجة مخاضات كبيرة ومتواصلة في الزمن، تأسس قبلها وعي ثوري. "لقد كان اندلاع الثورة المسلحة في ذلك الوقت بالذات ضرورة فرضتها الأحداث وسياسة الاستعمار العقيمة، إذ أصبح الوطنيون يؤمنون أن لا طريق لنيل الحرية إلا عن طريق الثورة والعنف، ثم إن "المنظمة الخاصة" التي كانت معقد الآمال في تخليص البلاد من الاستعمار انتهى أمرها وتشتت أعضاؤها، بالإضافة إلى الكفاح الذي تخوضه كل من المغرب وتونس والهند الصينية ضد فرنسا." (3).

(1) نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير. ط1 كانون الثاني (يناير) 1981. دار العلم للملايين. بيروت. ص 147.

(2) للتوسع تنظر مقدمة كتاب: ابن باديس. حياته وآثاره. إعداد: د. عمار طالبي.

(3) يحيى الشيخ صالح. شعر الثورة عند مفدي زكريا. دراسة فنية تحليلية. ط1. دار البعث. قسنطينة. الجزائر. ص 27.

وانطلق الرصاص وكان التأييد الشعبي يتلاحق يوما بعد يوم، والسياسة الاستعمارية يزداد عقمها وهمجيتها وجبروتها، وكان الشعب يستمد عنفوانه في كل حين، وتلد الأمهات الرجال المخلصين. وقد أصدرت جبهة التحرير نداء إلى المواطنين صبيحة أول نوفمبر 1954 تشرح مبادئها وتبين أهدافها ومشروعها التحرري. وأهم تلك المبادئ المطالبة بالاستقلال وتحقيق السيادة كاملة غير منقوصة، واحترام الحريات الأساسية دون تمييز بين الأجناس والعقائد، وكذا تحقيق وحدة شمال إفريقيا في إطارها الطبيعي وهو العروبة والإسلام.(1). وقد كان الجانب الثقافي ملازما للجانب السياسي في كل مراحله، سواء من قبل فرنسا أو من قبل الجزائريين؛ فالصحافة نشطت واشتد عودها وراحت تكتب دون خوف أو وجل، وفي الجهة الأخرى كانت فرنسا عارفة باليقظة الجزائرية في سكونها وحركتها. " لقد أدرك الاستعمار أن صرحه الذي شيده بالجزائر بقوة البطش والسلاح سيبقى مهددا بالانهيار في أية لحظة، ما دام في صدور أبنائها إيمان قوي، وعقيدة صحيحة، وما دامت تجري على ألسنتهم لغة عتيقة، تحمل تراثا أصيلا وحضارة عريقة، وتشكل من كل ذلك شخصية قوية تستعصي على الإدماج والاستلاب." (2). لذا حاول تكوين طبقة موازية متفرنسة تعلمت في مدارس فرنسية وتشبعت بلغتها، وفتح الفرص أمام أفرادها للاندماج داخل المجتمع الفرنسي وبذلك " يحارب الجزائر بأبنائها أنفسهم، ويهدمها بسواعدهم وفعلا نجح المستعمر في مسعاه بالنسبة للكثيرين ممن تخرجوا من معاهده." (3). وعلى هذا الأساس يرى محمد حربي في حديثه عن عناصر النهضة " أن الانتفاضة الجزائرية ستكون نتيجة قوتين تعملان معا ضد

(1) للتوسع ينظر كتاب يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا. ص: 27 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه. ص: 32.

(3) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

عدو واحد ولكنهما تتناجدا أحيانا وأحيانا تتعارضان وتتشابكان. الأولى مدنية أو قروية وهي ناتجة عن الاتصال والاحتكاك بفرنسا وكانت تشارك في العمل السياسي عن طريق التدخل السياسي النشط. أما الثانية فشمعية ودينية متعلقة بتقاليدها وكانت تعبر عن نفسها خارج الأشكال العصرية، أسلوبها الرفض أو العنف". (1). وحتى وإن تنوعت الأشكال الثورية التي نبعت من خلال الزخم الفكري الذي دخل المجتمع الجزائري عن طريق الفئة المثقفة سواء من العلماء المسلمين الذين تشربوا من ثقافة عربية مشرقية، أو من قبل الفئة المثقفة ثقافة غربية ليبرالية أو شيوعية؛ فإننا " يمكن أن نجل الحركة الفكرية في تيارين: تيار يبحث في تاريخ الجزائر عن مقابلات لما وقع في أوربا وآخر يؤكد على الفروق ليرتقي بالوعي إلى ما يميز الجزائر عن غيرها". (2). وهكذا راحت الأفكار تتصارع وتحاول الهيمنة وبث السيطرة على معظم فئات المجتمع من أجل تحقيق مسار ثقافي يتماشى مع مجمل التصورات الإيديولوجية التي جاءت بها الجماعة المنادية؛ فقد " مثلت الشيوعية من بين كل التيارات المنتمية إلى الاشتراكية العنصر الأكثر فعالية في نهضة الجزائر. فالشيوعية الجزائرية التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد الثورة الروسية كانت تنتمي إلى الماركسية-اللينينية". (3). ولقد وقع هذا الطرح الإيديولوجي في صدام مع الوجدان الجزائري المتأصل المنتمي إلى ثقافة عربية إسلامية ضاربة في عمق التاريخ. فكان يُلجأ إلى التحايل على عقول الناس خاصة وأن المجتمع في معظمه يعيش الجهل والأمية، ولكن من جهة أخرى كانت دعاية المناضلين في هذا التيار تسعى إلى تأكيد أن الإسلام والعرب دخلاء على الجزائر وأن الإسلام

(1) محمد حربي. الثورة الجزائرية. سنوات المخاض. ت: نجيب عياد وصالح المثلوثي. موفم للنشر 1994. ص 103.

(2) المرجع نفسه ص 106.

(3) المرجع نفسه ص 111.

له طابع شوفيني ضيق إذ أنه يعادي غير المسلمين ويعارض كل تقارب جزائري أوربي (1) وهيهات أن تمحي أصالة الجزائري؛ فشخصيته قوية وصلبة ولا تقبل الذوبان في جنس آخر له ثقافة مختلفة عن ثقافته، وله نفسية مغايرة لنفسيته؛ " فلم يكن الجزائريون ينظرون يوما إلى الفرنسية إلا على أنها لغة الأجانب. ثم إن أحدا من عقلائهم ومفكرهم، وعوامهم أيضا، لم يكن يعتقد أو يحاول أن يعتقد بأنه فرنسي من الفرنسيين. فقد كانوا يرون ذلك، تلقائيا، خيانة ليس من بعدها خيانة. " (2). وإذا فالثقافة الفرنسية على الرغم من الوسائل التي سخرت لترويجها وإدخالها في قلوب وعقول الجزائريين، إلا أنها " لم تتمكن تمكنا عميقا إلا من نسبة من الجزائريين الذين أُتيح لهم أن يدرسوا في المدارس الفرنسية على نحو واسع، مما جعل عامة الشعب الجزائري يظل جاهلا بالأدب الفرنسي، والتاريخ الفرنسي، والفكر الفرنسي في عمقه وأصالته. " (3). وتدعيم أي رأي يوجب بالضرورة آليات الإقناع والتأسيس للفكرة التي ربما تحول دونها قناعات أخرى، لذلك راحت النخبة المثقفة غربيا إلى الاعتقاد بأن اتباع الغرب وتقليده يعني الانتماء إلى لب الحضارة؛ فالالتفات إلى فرنسا يفيد البلاد في " أن تتطور ثقافيا إذا ما أخذت بالثقافة الفرنسية؛ لأن الثقافة العربية- في نظرهم - ثقافة متخلفة لا تساير العصر الحديث، وأن أدواتها اللغة

(1) محمد حربي: الثورة الجزائرية. ص113.

(2) عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر. 1925-1954. ط2. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1983. ص23.

(3) المرجع نفسه. ص 28.

العربية متأخرة(*) لما لحقها من جمود عبر السنين." (1) ولا نعلم فعلا إيجابيا واحدا من قبل فرنسا تجاه مقومات الشخصية الجزائرية، خاصة الدين واللغة "وإذا علمنا أن الحملة الفرنسية كانت قد حولت معظم المساجد الكبرى إلى كنائس، كما استولت على الأوقاف التي كانت تغذي المساجد ماديًا، فإننا ندرك أبعاد الغزو الفرنسي للجزائر في مجال مهم، هو محو مقومات الشخصية العربية الإسلامية" (2)، وحتى المثقفون الذين نالوا شرف تعلم اللغة الفرنسية آنذاك لم يكن في نية فرنسا تكوينهم تكوينًا جديدًا، لأنهم قد ينقلبون به عليها في يوم من الأيام " وإنما الذي كان في نيته هو أن تعلمهم بقدر حاجتها إليهم " (3). وما من شك في أن اختلاف المشارب الفكرية التي توزعت بين مختلف فئات الشعب سواء المثقفين أو الذين يؤيدون الفكرة يعود أساسًا إلى الحجم التراكمي الحاصل في المجتمع بفعل العامل الثقافي والإيديولوجي والاقتصادي. ولقد كان الإحساس بمبدأ القومية العربية متأخرًا في جانب وغير فعال في جوانب أخرى، وعلى هذا الأساس استطاع دعاة التجنيس والإدماج لم الصفوف، وإيجاد المساندين للفكرة. وراح الناس يهللون. " وإذا كانت الثورة العربية بعد الحرب العالمية الأولى تعد بداية انتشار الإحساس القومي العربي عامة، حيث كانت الفكرة السائدة آنذاك هي الانفصال عن الأتراك، على اعتبار أن هناك

(*) هنالك وسائل أخرى لضرب اللغة العربية تبناها الاستعمار ووجد من يؤيدها من الجزائريين، تمثلت في محاولة تعويضها بالعامية. لأنها قريبة جدًا من عقول الناس، خاصة وأن الفئة العظمى من الشعب الجزائري حرمت من نعمة العلم والتعلم وهذه الدعوة قام بها بعض العلماء الأوربيين ومن صانعوهم من أبناء الأمة العربية... ينظر مقال بعنوان: الدعوة إلى العامية أصولها وأهدافها للدكتور عبد الله بوخلخال. الآداب. مجلة لقسم اللغة العربية وآدابها . جامعة قسنطينة عدد 01، سنة 1994. ص 162 وما بعدها.

(1) ينظر عبد الله الركيبي . قضايا عربية. ص 13.

(2) محمد العيد تاورته: الرواية في الأدب الجزائري المعاصر. النشوء والتطور: 1947-1984. ج 1. مخطوط رسالة دكتوراه. جامعة قسنطينة 2000. ص: 225.

(3) المرجع نفسه. ص: 229.

قوميتين منفصلتين ومختلفتين في الخصائص جنسا ولغة وحضارة وثقافة". (1). ولكن الإحساس كان مشوبا بالتردد والارتباك، لأن المسألة لم تتضح بالقدر الكافي الذي يسمح بالمسار في نطاق التحديات التي كانت مفروضة من قبل الاتجاه المضاد". ومن هنا نجد مسوغا للمتقنين الجزائريين الذين ثقفوا ثقافة فرنسية، في عدم عنايتهم بقضايا الشرق والارتباط به". (2)

ويأتي الاستقلال الجزائري، وسط مجالات شاسعة للتفاؤل والانطلاقة الجديدة مؤطرا حدوده من واقع تضحية الأبناء بالنفس والنفيس. صانعا مرحلة جديدة مفادها الخروج من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. زارعا في أبنائه تصورا مشحونا بفرحة النصر، ومدفوعا بالامتلاء والرغبة الجامحة في التخطي والتجاوز، ونسيان مراحل البؤس والحرمان التي عاشها الشعب في ظل الاستعمار الغاشم. لقد جاء الاستقلال ليفتح تحديا آخر قد يكون عسيرا إذا لم يجد آليات التسيير العلمي النزيه ووسائل مجابهة التحدي، لأن الاستعمار ترك خلفه دمارا رهيبا في أوساط المجتمع: فقد خلف آلاف المشردين وآلاف الفقراء والمحرومين وآلاف الجرحى والمعطوبين والمفقودين، وترك معظم الشعب يعيش في جهل وأمية. ولكن على الرغم من كل ذلك فالإصرار كان هو السيد المحتكم إليه. لقد بدأ التأطير من خلال بيان أول نوفمبر الذي دعا إلى تبني فكرة الحريات واحترامها وفكرة إقامة دولة جزائرية ديمقراطية في إطار المبادئ الإسلامية. فقد عقد في النواة الأولى من الاستقلال مؤتمر للطلبة الجزائريين

(1). عبد الله الركبي . قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر. الدار العربية للكتاب. ص 13

(2) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

وقال الرئيس بن بلة لشبيبة البلاد المجتمعة في هذا المؤتمر: إننا نمتلك برنامجا، ولا نمتلك مفهومية*⁽¹⁾. مثل الجبهة الأوربية الغربية وأمريكا والمعسكر الاشتراكي. وكرست فترة البناء الوطني " التي شرع في ممارستها على صعيد الواقع، والمتمثلة في خوض معركة التعريب، واسترجاع الثروات الوطنية، وتعميم ديمقراطية التعليم، وتأسيس وتنظيم هياكل الدولة وبناء القرى الاشتراكية في إطار الثورة الزراعية، وتعميم الطب المجاني. هذه المهام في الداخل بالإضافة إلى التفتح على العالم لمساندة كفاح الشعوب المظلومة، ومناهضة السياسات الرجعية والاستعمارية."⁽²⁾ ومن منطلق عملية إعادة البناء من جديد، وقع المجتمع الجزائري في حيرة وبلبله كبيرتين " وكان لا بد من عملية فرز على أسس وطنية، لإيجاد الطليعة التي يمكنها أن تقود الثورة، وتوصل زمن الثورة الوطنية، بزمن الثورة الديمقراطية كما ألح على ذلك برنامج أو ميثاق طرابلس"⁽³⁾ ومع حجم الدمار الكبير الذي خلفه الاستعمار، طرحت المشاكل بحدة وبجراحة كبيرة، إذ " كان لا بد من إيجاد حلول ناجعة للمشاكل المطروحة بعمق. السكن، والأكل، والغطاء والتعليم لأكثر من مليونين من عائلات الشهداء بكل أفرادها، الأمر الذي حتم سياسة خاصة، برزت فيها كل التناقضات الأساسية والثانوية."⁽⁴⁾ وفي ظل البناء يستوجب أن يكون المسار منبئيا على فكر يعي صورة التركيبة الاجتماعية. ومنه تكون القاعدة متينة وصلبة وثابتة. "وكان الأساس في ذلك كما قال المرحوم هواري بومدين: هو استغلال كل

(1) مالك بن نبي: آفاق جزائرية-للحضارة-للتقافة-للمفهومية. ترجمة الطيب الشريف. مكتبة النهضة الجزائرية ص155.

(*) المفهومية يقصد بها De L'Idéologie.

(2) أزراج عمر. الحضور. مقالات في الأدب والحياة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1983. ص: 217.

(3) واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر. مخطوط رسالة لنيل شهادة الماجستير. جامعة دمشق.

1982. ص: 73/72.

(4) المرجع نفسه. ص: 73.

الاستثمارات في صالح الجماهير الشعبية" (1).

والمجتمع منوط بجملة من العلاقات والأمشاج بين مختلف شرائحه الاجتماعية من مجمل الطبقات والمستويات. ولكل مجتمع مجموعة من المنظومات التي تؤلف بين عقليات أفراده وجماعاته من دون أن يحصل تنافر أو تطاحن وإلا كان المجتمع مشتتا تحكمه الفوضى وعدم الانسجام. لقد حصل المجتمع الجزائري من خلال الانصهار بين الجنس البربري والعربي الذي أتى من المشرق بفعل الظروف التاريخية التي تعرضنا إليها سابقا. من دون أن ننسى الأجناس الأخرى التي انصهرت تاريخيا فيه أيضا. وعليه تأسس الإطار الحضاري الذي يوجه سيرورته الاجتماعية والثقافية التي تتناسب طبيعته الوجدانية والسلوكية. " إن مصطلح "الإطار الحضاري" يحمل مضمونا يختلف عن مصطلح "الإطار الثقافي". فالسابق يتضمن أحكام وجوب ذلك أن الحضارة Civilisation هي أسمى من الثقافة. " (2). ويمكن لأي منظومة أن تتشكل من خلال معارفها الخاصة بها، ومعاييرها التي تعمل دوما في سياق تحقيق التوازنات السياسية والثقافية والاقتصادية. وعلى هذا " فالمصطلح "إطار" يشير إلى جملة المعارف والمعلومات (الحضارية) التي تشكل معطيات أساسية حول الواقع في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. " (3). والدولة الجزائرية المستقلة أعطت إطارا تمثل في تبني أفكار الاشتراكية التي لا تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي الذي يعتبر الركيزة الأساسية التي تتبني عليها مختلف الأنسجة الاجتماعية التي تشكل المجتمع الجزائري.

(1) واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية الجزائرية. ص: 73.

(2) خير الله عصار: نحو إطار حضاري للمجتمع العربي. الثقافة ع114. سنة 1997. ص 10.

(3) المرجع نفسه. ص 11.

وفي بحثنا هذا نسعى إلى تبين مرحلة ما بعد الاستقلال(*) وفق وضعين سياسيين يلتقيان أحيانا ويفترقان أحيانا أخرى. الوضع الأول هو السياسي الذي تولاه الراحل هواري بومدين. والوضع السياسي الثاني هو مرحلة الرئيس الشاذلي بن جديد. فكل وضع كان يندرج ضمنه حزب حاكم هو حزب جبهة التحرير الوطني.

لقد تبنت الدولة توجهها سياسيا خارجيا يضمن لها التفاعل الاقتصادي مع دول الخارج، لكن ظل الارتباط مع فرنسا هو المحك الذي توزن به تلك السياسة. وكانت الاتفاقات المبرمة تتدرج ضمن المراحل التالية:

- الاتفاقات المبرمة خلال سنتي 1963-1964.

- الاتفاق حول المحروقات 1965-1969.

- مرحلة الصراع حول البترول وتأميم المحروقات 1970-1978.

وهذه كلها تمثل بالدرجة الأولى مرحلة الراحل هواري بومدين، وإلى حد ما بن بلة. ثم تأتي مرحلة الشاذلي بن جديد، وهي المرحلة التي ابتدأت بمجيء الاشتراكيين إلى الحكم في فرنسا. (1). وهناك الكثير من المشاكل التي طرحتها سنوات الاستقلال واستعصى حلها في الكثير من المرات، لكن مع ذلك وجدت محاولات من قبل الحكومة سعت إلى التقليل من حدتها، وثقلها على الساحة الاجتماعية. والمشكل يتمثل أساسا في الهجرة؛ لأن المجتمع فتي ولا يزال يرتب أمور بيته من الداخل. فقد جرت مفاوضات جزائرية فرنسية بتاريخ 10 أفريل 1964. تقضي باعتماد مبدأ ينص على أن عدد المهاجرين الجزائريين لفرنسا يتحدد حسب اليد العاملة الجزائرية المتوفرة من جهة،

(*) هناك مرحلة سياسية قصيرة جدا هي مرحلة الرئيس أحمد بن بلة وقد تغاضيناها لأنها لم تبلور وعي ثقافي معين أو لم نلمس ذلك على الأقل.

(1) محمد الميلي: مواقف جزائرية. ط1. 1984. المؤسسة الوطنية للكتاب. ص 219.

وحسب إمكانيات سوق العمل الفرنسي من جهة أخرى.(1) ووجد مشكل آخر اقتصادي إضافة إلى مشكل الهجرة؛ فإذا كانت هذه الأخيرة " تمثل أحد المشاكل الكبرى التي وجهت العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال ما يقرب من عشرين سنة، فإن المشكلة الكبرى التي وجهت العلاقات بين البلدين تتمثل في المحروقات..." (2). لقد خاض النظام الحاصل سنة 1965 الكثير من معارك التحدي تمثلت أساسا في استرجاع الثروات الوطنية وتحقيق التنمية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية. كما احتل التصنيع وإنشاء الهياكل الصناعية الكبرى الصدارة.(3). إن النخبة المثقفة من أبناء الجزائريين خاصة زعماء الإصلاح أو المتأثرين بهذه المدرسة راحوا يعلنون ولاءهم المطلق في كل حين وعند كل هزة تهز المجتمع العربي، فكان الارتباط متينا ومؤسسا على قناعة الانتماء إلى أمة عربية موحدة بالدين واللغة، فلا غرو إذا تغنى شعراء الجزائر بنجاح الثورة العربية سنة 1919. ولا غرو إن تأسى أو تنامى الأسى في أفئدتهم عند النكبة العربية، وربما التطلع من جديد عند انهيار الحكم الملكي في مصر سنة 1952. ثم التأسف من جديد عند العدوان الثلاثي سنة 1956. وماتلاه من نكسة عظمى سنة 1967. ويسرد عبد الله الركيبي تلك الواقعة قائلا: " حين وقعت معركة يونيو 1967 وخسرناها، كنا كمن لطم على وجهه بغتة دون أن يعمل حسابا لهذه اللطمة. وأعقب هذا الوضع فترة شعر فيها العرب باضطراب وتخلخل في شتى القيم التي آمنوا بها ورددوها طويلا." (4). وكان مثل هذا الاهتمام على غرار باقي اهتمامات الدول العربية الأخرى آنذاك. كل ذلك مرده

(1) محمد الملي: مواقف جزائرية. ص 220.

(2) المرجع نفسه. ص 226

(3) المرجع نفسه. ص 274.

(4) عبد الله الركيبي. قضايا عربية ص 81.

إلى الشعور المنتامي بالقومية العربية التي سطرت مسيرة متتالية عبر الزمن وإن كان ميلادها ليس ضاربا في عمق التاريخ. ولهذا استل الشاعر الجزائري من عمقه صدى الانتماء و" صور إحساسه بقضايا الثورة في الوطن العربي، وكان صادقا في إحساسه؛ لأن شعوره كعربي جعله يحس بوقع الأحداث وكأنها وقعت له، ولم ينس المناسبات السياسية التي لها صلة بقضايا الثورة لأنها تتوحد لها، مثل ذكرى الاستقلال في الأقطار العربية.. كما سجل تأثره ببعض المناسبات الأخرى، ك وفاة زعيم عربي أو إسلامي مثلا". (1). أما على المستوى الثقافي فقد أدرجت التصورات، وسُطرت البرامج من أجل إعطاء تصور ثقافي علمي، يبتعد عن النزعة العاطفية الهشة، ويتبنى فكرة الثقافة المنتجة. ولكن الضعف واللامبالاة أحيانا أدت إلى الوقوع في الابتذال، وعدم إعطاء الأمر حقه من الاهتمام. " لقد ورد في برنامج طرابلس أن الثقافة الجزائرية ستكون وطنية وثورية وعلمية". (2). فالوطنية يقصد بها: إعادة الكرامة للغة العربية بعدما حاول المستعمر تحطيمها. وكذلك إعادة بناء التراث الوطني في كل الإنجازات الحضارية. وتنمية الحس الوطني. أما صفة الثورية فيقصد بها: محاربة مخلفات الإقطاع، ومحاربة الشعوذة التي أدخلت على الدين. أما العلمية فيقصد بها تدعيم البحث والنهوض به حسب مقتضيات العصر واحتياجاته. (3). ولكن ما جرى في الساحة كان في مرات عدة يخالف ما يكتب على الورق؛ إذ أن مشكل التعريب الذي كان يُرجى من ورائه النهوض باللغة العربية التي تعتبر اللغة الرسمية للبلاد، قوبل بالعراقيل الكبيرة التي وضعت من قبل أنصار المدرسة

(1) عبد الله الركيبي: قضايا عربية. ص 114.

(2) محمد العربي الزبيري: الغزو الثقافي في الجزائر. 1962-1982. مجلة الرؤيا. ع3. سنة 1983. ص 16.

(3) للاطلاع أكثر يرجى العودة إلى مجلة الرؤيا ص 16 وما بعدها.

الفرنسية." إن عرقلة التعريب، وعدم الإيمان بجذواه هما اللذان أفشلا حملة محو الأمية التي تم تنظيمها مرات عديدة وعلى أصعدة مختلفة. كما أن الخوف من التعريب هو الذي كرس ما يسمى بالازدواجية التي هي عبارة عن واحد من أوجه الاستعمار الجديد" (1) وقد رافقت مثل هذا الطرح سلسلة من الإجراءات وإن كانت غير متصلة الحلقات في الكثير من الأحيان كإقامة دروس العربية بالوسائل البصرية، وكان ذلك في إطار النشاطات التي يقوم بها مركز الإعلام والثقافة التابع لوزارة الإعلام والثقافة؛ حيث شرع المركز ابتداء من أول أبريل 1976 في إعطاء دروس اللغة العربية، ويستوعب المركز 300 شخصا يتلقون الدروس في القاعات وفي مخابر اللغات، ويدخل هذا النشاط في حملة التعريب لاسترجاع اللغة القومية. (2). إن الدولة في مراحل الاستقلال الأولى وضعت في تصورهما صفة المثقف الثوري الذي يتلبس بالأخلاق الثورية، وإن تلك الأخلاق " تدفع المثقف المؤمن بالثورة الاشتراكية إلى محاربة أولئك الذين يخفون الحقائق عن الشعب... سيما تلك الحقائق التي تتعلق بالجزائر الاقتصادية والسياسية. وإلى محاربة أولئك الذين يتهربون باستمرار من النقد العادل، ومن مواجهة الشعب بكل الحقائق التي تمس تراثه الثقافي والاقتصادي والاجتماعي." (3). كما كانت في جانب آخر فكرة تأسيس اتحادات وجمعيات ثقافية تعمل على ربط الجزائر ثقافيا بالخارج سواء الدول العربية أو الأجنبية، ومن بين ما أنجز بعد مخاض عسير الاتحاد العام للكتاب الجزائريين. ويعترف عبد العالي رزاقى بأن " الفضل في ظهور اتحاد الكتاب الجزائريين يعود إلى المؤتمر العاشر للكتاب العرب الذي أرادت الجزائر احتضانه عام 1974،

(1) محمد العربي الزبيري: الغزو الثقافي في الجزائر. 1962-1982. مجلة الرؤيا. ع3. سنة 1983. ص: 19-20.

(2) محمد خمار: الحياة الثقافية في الجزائر والعواصم العالمية. مجلة الثقافة ع32 سنة 1976 ص 146-147.

(3) الطاهر بن عيشة: الأخلاق الثورية. الرؤيا. العدد3. السنة 1983. ص: 33.

فسارعت إلى تأسيسه، على الرغم من أن الفكرة ولدت يوم 28 أكتوبر 1963 في المركز الثقافي للشؤون الإسلامية، حيث عقد كتاب كبار اجتماعا لهم وعينوا مولود معمري رئيسا وجان سيناك أمينا عاما، وضم الاتحاد آنذاك ما يقرب 50 عضوا، مثل محمد ديب، مالك حداد، كاتب ياسين، توفيق المدني، مفدي زكريا، محمد العيد آل خليفة وغيرهم، ووقع هؤلاء الكتاب على أول ميثاق وطني للأدباء والكتاب.⁽¹⁾ ولكن نستشعر الركود الثقافي في السنوات الأولى من الاستقلال والذي تمثل في فقدان الصحافة الأدبية ماعدا مجلة المعرفة والمجاهد الأسبوعي. وقلة وجود الكتاب العربي في الأسواق وضعف الطبع وعدم نشر الإنتاج الوطني؛ إذ لم تتجاوز حصيلة هذا الإنتاج خمس عشرة مجموعة شعرية بين 1962-1970. بما فيها المطبوع خارج الوطن⁽²⁾. ومن بين ما صدرت في هذه المرحلة - مرحلة الستينيات المجلات والجرائد التالية: المجاهد صدر في 1962. والمجاهد الثقافي سنة 1962 أيضا. القبس صدرت عن وزارة الشؤون الدينية في مارس 1966. مجلة آمال. صدرت عن وزارة الإعلام سنة 1969. وبعد التغني بمفاخر الاشتراكية، تأتي مرحلة أخرى تمثل تحولا في مسار التغيير السياسي والثقافي والاجتماعي، وقد نجم عنه تغير في نسق التعبير. وهذه المرحلة هي مرحلة الانفتاح.

(1) عبد العالي رزاق: اتحاد الكتاب "الفضيحة". جريدة الشروق اليومي. العدد 906. السنة الثالثة. 2003.. ص 24.

(2) للاستزادة ينظر محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث ص 162.

هل يمكن أن يظل الإسلام والاشتراكية متحاورين في ظل التحولات الكبيرة التي كانت تمس العالم وفي ظل الصراعات بين العالم الرأسمالي والعالم الليبرالي؟ إن المشكلة في الجزائر كانت مشكلة تخلف حصل نتيجة استبداد استعماري حاول إلغاء شخصية مجتمع، دون وازع أو رادع. وعلية فإن أمر البناء دائما يكون عسيرا، ويحتاج إلى سواعد قوية ومتينة وصامدة، وعقليات تتمتع بالنبوغ والتجدد والتطلع والانفتاح. ونقول مع هذا: هل كانت الرؤى والتصورات التي طرحت في مطلع السبعينيات تخدم تطلعات المجتمع نحو البناء والاستمرارية وفقا لما تفره معالم الشخصية الوطنية المتشعبة بروح الإسلام ولغة الضاد؟ لقد كانت تقام الملتقيات الفكرية التي تنظر لمسيرة التكوين الثقافي التي تسطرها الدولة، وتؤيدها الجماهير العريضة من فئات الشعب. ففي الملتقى الرابع للفكر الإسلامي الذي انعقد بقسنطينة في أغسطس 1970. تطرح مشكلة-على سبيل المثال- تتعلق بالأصالة، وهي العلاقة بين الإسلام والاشتراكية؛ فهناك من رأى أن الإسلام كدين لا يتفق والاشتراكية التي لها أصول إلحادية، وقائل يرى إن الإسلام رجعي لا يتلاقى مع الاشتراكية. ويجب مولود قاسم عن هذه الإشكالية بقوله إن: "أصول الاشتراكية قد وجدت منذ أربعة عشر قرنا، وذلك في روح الإسلام ونصه، وهو دين العدالة، والإنصاف والتضامن، والرحمة، مع المحافظة على حرية المبادرة، والتنافس في العمل البناء، مع الاحتفاظ بالقيم الروحية والأخلاقية العليا، التي بها يتماسك المجتمع

ويقوى بنيانه، وذلك كله ما نود أن نسميه بأصالة مجتمعنا الاشتراكي"(1). لقد طرحت في هذه الفترة مجموعة من القضايا التي كانت تمس التكوين الثقافي والسياسي للأمة من أجل أن تدرس وتقوم ويتوصل إلى الحلول اللازمة والمناسبة. ومع رسم السياسة العامة التي تقوم على معادلة القاعدة والقمة، تنتهج المسارات القائمة على النضال المستمر، الذي يحمل ديمومة في التطلع واللامسة الفعالة للواقع، ومن هنا كانت الثورة الزراعية، والتسيير الاشتراكي للمؤسسات، وكذا الطب المجاني، ولجان التطوع، واللجان التربوية، تسعى محافظة على بقائها واستمرارها (2). فقد ظهر التاريخ كصورة لواقع ينبغي أن يعالج بشيء من التمعن في الشخصية والانتماء الحضاري؛ والعمل الذي قام به الشاعر الثوري مفدي زكريا والخاص بإلياذته دليل قاطع على أن البحث في الهوية الوطنية كان شغلا شاغلا وملحا من أجل النهوض بالبلاد ودفعها إلى الأمام. وعليه يقول مولود قاسم: " طلبنا [يقصد من مفدي] أن يضع لنا نشيدا جديدا يجمع هذه الأناشيد كلها] يقصد نشيد قسما ومن جبالنا طلع صوت الأحرارو...[، ويشمل فيه وبه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها حتى اليوم، مركزا على مقاومتنا لمختلف الاحتلالات الأجنبية، وعلى العهود الحضارية الزاهرة المتعاقبة، وحاضرنا ومستقبلنا في كفاحنا لاستعادة جميع ثرواتنا، ومقومات شخصيتنا وحصانتنا، وبناء مجد جديد لأمتنا." (3).

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم: إنية وأصالة. منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية. مطبعة البعث. قسنطينة.

الجزائر 1975م. ص: 115

(2) للاطلاع أكثر ينظر واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية الجزائرية. ص: 87

(3) مولود قاسم: إنية وأصالة. ص: 366.

وتأتي فترة السبعينيات التي تشهد بعض التطورات المرحلية وتعيش «تحولات هامة في الميادين الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، وشهدت أحداثا ثورية، وإنجازات معتبرة مثل تأميم الثروات المعدنية، والثورة الزراعية، والتسيير الاشتراكي للمؤسسات، وانتشار التعليم وديمقراطيته، والطب المجاني، وغيرها من التحولات الهامة التي تدخل في إطار الثورات الثلاث، الصناعية، والزراعية، والثقافية. (1). فمن ميثاق طرابلس في فترة الستينيات إلى الميثاق الوطني المصادق عليه سنة 1976. لقد ألمحنا سابقا إلى أنه قبل الاستقلال وجدت مجموعة من التيارات المختلفة فيما بينها، وحينما اندلعت الثورة صارت الجزائر تتحرك في إطار أيديولوجية واحدة. وبعد الاستقلال طفت على السطح مختلف الأيديولوجيات، وانتهى الانتصار إلى الأيديولوجية الاشتراكية، مع الحفاظ على مقومات شخصيتنا الإسلامية. (2). ويبدو أن الاختلاف الموجود بين المرحلتين يكمن أساسا في ما قاله محمد العربي الزبيري في إحدى الحوارات: "لئن كان ميثاق برنامج طرابلس، وميثاق الجزائر من وضع القيادات المختلفة وإطارات جبهة التحرير الوطني، فإن الميثاق الوطني من وضع وتعديل الجماهير الشعبية الواسعة." (3). وقد كان التواصل بين مرحلة الستينيات والسبعينيات هدفا تسعى مختلف المنطلقات السياسية ورؤى الجماهير الشعبية إلى تحقيقه مثل الاستمرار في تنفيذ مطلب التعريب؛ لقد "أصدرت الدولة في الجزائر قرارا بأن يتم تعريب الجهاز الحكومي في عام 1971 ولا شك أن هذا القرار جريء، ويعكس رغبة جريئة في تعميم اللغة العربية." (4). ولكن رياح

(1) محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث. اتجاهاته وخصائصه الفنية. 1925-1975. ط1. دار الغرب الإسلامي.

بيروت 1985. ص 166

(2) أزراج عمر . أحاديث في الفكر والأدب. ص 110

(3) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

(4) رؤوف نظمي: التعريب ثورة وضماني ثوري. مجلة: الكاتب. ع97. السنة 1969. ص: 92.

المعارضة لمثل هذا الأمر لم تكن بعيدة؛ ففي ظل الازدواج اللغوي الذي ورثه الجزائريون وجد من يدافع بشدة من أجل ألا ترسخ اللغة العربية بدعوى أنها ليست لغة العلم والتقدم الصناعي(1). وظلت السياسة القائمة على نمط الحزب الواحد التي كانت مختلف القرارات السياسية نابعة من صميم المناقشات الدائرة في كنف ذلك الحزب؛ فهو الذي كان يوجه السياسة العليا للبلاد ويصنع الخريطة السياسية التي تسعى - في نظره - إلى مطابقة توجهات الجماهير الشعبية مع متطلبات العصر وما يقتضيه سياق التطور. ويعتبر الميثاق الوطني الذي نتج عن الحوار الشعبي الواسع سنة 1976 من الأحداث المهمة في البلاد والذي استطاع أن يضع لبنة كبيرة في تحولها إلى وجهة أخرى، ولا غرو إن " كان هو الدليل النظري والقاعدة العقائدية" (2). وفي تباين الآراء والطروحات والرؤى الناجمة عن حجم الاختلافات والخلافات التكوينية تنتج التوجهات، وتحاول ترسيخ أفكارها وقد تكون الدوافع نابعة من رؤى الشعب وطموحاته أو من خارج تربته وبالتالي فهي بعيدة عن أحلامه ورؤاه. ولكن في المقابل " هذا الجو ساعد على انتعاش آمال فئات مختلفة وعلى الرغم من تباين اتجاهاتها ومشاربها إلا أنها التقت في نقطة واحدة وهي ضرورة التخلص من النهج الاشتراكي الذي يكرسه الميثاق والدستور فقد كان هناك من يعادي الاشتراكية بالتستر وراء الدين إذ يتخذ شعارا والإسلام يعتبره تبريرا(3). ومن وراء هذا الملمح التغييري أصبحت المطالبة بانتهاج أساليب جديدة أمرا ملحا. ولا بد أن نعطي في هذا المضممار شيئا عن المعنى الاشتراكي الذي كان يتوخى العمل به

(1) رؤوف نظمي: التعريب ثورة وضمأن. ص 93.

(2) محمد الميلي مواقف جزائرية. ص: 259

(3) المرجع نفسه. ص260

من قبل الداعين إليه؛ " فقد ولدت الحركة الاشتراكية في الغرب متسمة بطابع تقاليد عقلية تبلغ من العمر ألفين من السنوات؛ ومنذ عهد لوكريس (Lucrece) لم يكف التيار العقلي هناك عن نقل فكرة: "مادية النزعة" يبدو أنها لا تقبل الانفصال عن العبقريّة الغربيّة" (1) ولعل الطبيعة الوجدانية للشعب الجزائري المتمسكة بالإسلام كخيار غير قابل للمساومة، وكذا العروبة التي كانت نتاجا مترسبا عن الإسلام " لا يوجد أيّ سبب ولا حتى العامل الذي كان منبت الجذور في قليل أو كثير عن أصوله الروحية والاجتماعية. " (2). ولا نريد أن ندخل هنا في تبيان مدى صلاحية فكرة التغيير، وإنما نرى أن مثل هذا الميثاق هو الباعث على الإسراع في دفع عجلة القطاع الخاص التي تعتبر ملمحا ظاهرا من ملامح التغيير السياسي و" من المعروف أن الميثاق الوطني اعترف منذ سنة 1976 بالقطاع الخاص، أو برأس المال الوطني غير المستغل. " (3). وفي بداية السبعينيات ظل التتويج الاشتراكي الركيزة الأساسية التي تستند عليها بناءات الدولة الجزائرية سلطة وشعبا؛ فالسلطة تحاول التأسيس وتطمع في الالتفاف من قبل الشعب. ففي مجلة الأصالة التي تأسست في مارس 1971. (*) يطرح رئيس الجمهورية هواري بومدين تصوره للثورة الثقافية قائلا: " وإذا كان الازدهار الاقتصادي والاجتماعي، وتوزيعه العادل على جميع أبناء الشعب يفترضان نجاح ثورتنا الصناعية والزراعية وتنسيق جميع جهودنا في سائر مجالات الاقتصاد والإنتاج، فإن ثورتنا الثقافية هي روح كل هذا البناء، إذ هي التي ستتوج أعمالنا، وتعطيها تماسكا وانسجاما، وتضمن لها الشمولية،

(1) مالك بن نبي: آفاق جزائرية. للحضارة. للثقافة. للمفهومية. ت: الطيب الشريف. مكتبة النهضة الجزائرية ص 212.

(2) المرجع نفسه. ص 215/216

(3) محمد الميلي: مواقف جزائرية. ص 339

(*) مجلة الثقافة تأسست في السنة نفسها وفي الشهر نفسه (مارس 1971).

والخصوبة، والدوام، وتسبغ عليها معناها الحقيقي، ومغزاها التام." (1). وفي نطاق مسيرة التعريب مثلا والتي تفيد سياسة تأسيس الشخصية الوطنية ثم المحافظة عليها؛ كانت هناك مساع حثيثة ولكن متمسحة بمسحة الاحتشام وعدم تكريس الفعل المنهجي والثقافي الذي يضمن استمراريتها في المستقبل، ومن بين تلك المحاولات تعريب المحيط والحالة المدنية في سنة 1976. حيث أجريت حملة في هذا الشأن من أجل إعطاء صيغة عربية للحالة المدنية، وكذا تعريب أسماء الشوارع والواجهات وعناوين المحلات التجارية والمصانع العمومية والوثائق الحكومية المتصلة بالجمهور." (2). وهناك نشاطات أخرى كانت من تنظيم مركز الإعلام والثقافة التابع لوزارة الإعلام والثقافة ابتداء من أفريل 1976. وتتمثل في التدريس باللغة العربية لحوالي 300 شخصا بأحدث الوسائل نظريا في قاعات الدروس وعمليا في مخابر اللغات (3). وعلى الصعيد العربي والقومي ازداد الحس العربي أكثر خاصة وأن هناك شعورا متزايدا نتج بسبب حرب 1973. والتي منحت بعض الأمل للشعب العربي. " فعلى إثر حرب 1967 اتخذ مؤتمر القمة في الخرطوم قرارا بعدم الاعتراف بإسرائيل، وبعدم توقيع أية معاهدة مع العدو الصهيوني. أما مؤتمر القمة في الجزائر (نوفمبر 1973) فقد اعتبر منظمة تحرير فلسطين هي الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين... وفي السنة التالية (أكتوبر 1974)، عقد في الرباط مؤتمر القمة، بعد أن فرضت منظمة تحرير فلسطين نفسها، وأثبتت وجودها في هيئة الأمم المتحدة... ثم أتت زيارة السادات على غير ميعاد، فاجتمعت جبهة الصمود

(1) مجلة الثقافة ع1 مارس 1971. ص118/119.

(2) محمد خمار: الحياة الثقافية في الجزائر والعواصم العالمية. الثقافة ع32. سنة 1976 ص147

(3) المرجع نفسه. ص146/147.

في طرابلس (ديسمبر 1977). واتخذت عددا من القرارات الهامة، بإدانة زيارة السادات للقدس... (1). إن الإحساس بالوجود العربي ظل شديد الانغراس في وجدان الجزائريين من مختلف فئات الشعب، وكل هزة تحدث في بلد عربي إلا ويمتد الصدى إلى قلوب الجزائريين فيشعرون ويتألمون ويشاركون إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: شروط إقرار السلام في الشرق الأوسط. الثقافة ع43. سنة مارس 1978. ص6.

لقد عرفت نهاية السبعينيات مخاضا عسيرا، كان سببه وفاة الرئيس هواري بومدين، واستخلافه بالرئيس الشاذلي. وربما هذا الأمر أوجد فئة من الناس تتوق إلى تغيير النمط السياسي. وعلى هذا الأساس كانت إعادة النظر في المنهج الاقتصادي، وظهرت فكرة إعادة هيكلة المؤسسات. ذلك أن حمى التصنيع إذا كانت قد أقامت قواعد مادية معتبرة للاقتصاد الجزائري وحققت إيجابيات لا ينكرها أحد فقد أفرزت عددا من النقائص ليس هنا مكان شرحها، لكن يمكن تلخيصها في:

1- ظاهرة التبذير واللامبالاة بسبب غياب الرقابة والمحاسبة وذلك أدى إلى الاختلاس.

2- إنفاق مصاريف باهضة في المحاكاة الشكلية للبلدان المتقدمة، من دون أن يكون هناك إنتاج.

3- اختلال ميزان المؤسسات ممثلا في الأعداد الهائلة من المستخدمين والإطارات.

وعلى هذا الأساس حدد المؤتمر الاستثنائي لحزب جبهة التحرير في 1980 المبادئ الأساسية لإعادة الهيكلة كما يلي:

- تبسيط مهمة كل مؤسسة.
- تكييف نطاق النشاط مع الأهداف.
- تكفل هياكل متخصصة ومنفصلة عن هياكل الإنتاج بوظيفة التنمية والتسويق.(1)

(1) محمد الميلي: مواقف جزائرية. ص 288/289.

وفي ظل العهدة السياسية هذه، بدأت ملامح مرحلة جديدة تلوح في الأفق، وبدأت رياح أزمة أخرى تهب وتتقوى من يوم إلى آخر، متمثلة في أحداث القبائل التي تبنت النزعة البربرية؛ " إذ لم يكد يكتمل العام على انتخاب الشاذلي بن جديد رئيسا للجمهورية الجزائرية حتى اندلعت أحداث تيزي وزو (الربيع الامازيغي 1980). وقد تهافتت الصحافة العالمية آنذاك وخاصة الفرنسية منها، على نقل جزئيات وتفاصيل تلك الحوادث، وتضخيم وقائعها وتقديمها لا في صورة مجرد امتحان للحكم الجديد، ولكن في صورة توشي بأنها أزمة نظام يتعرض للتدحرج." (1). وظهر السخط الاجتماعي بسبب المتناقضات التالية:

- وجود هياكل دولة عصرية وتنموية معتبرة حققها النضال.
 - وجود أجهزة حزبية وحكومية بينها حد أدنى من الانسجام.
 - بدايات تنظيم لقوة اجتماعية حية في البلاد تتمثل في فئة الفلاحين والشباب.
- ومن جهة معاكسة توجد:

- عقليات متخلفة، تقدم قرابة الدم على قرابة الفكر.
- تناقضات أفرزتها تطبيقات خاطئة لبعض المبادئ التي حددها الميثاق الوطني.

- انعدام حس الدولة لدى كثير من أعوان الدولة.
- ولعل مثل هذه الأمور أنتجت تشققات اجتماعية بسبب التراكمات التي انجرت عنها الكثير من المشاكل الاجتماعية مثل قلة المواد الاستهلاكية الواسعة الانتشار وأزمة السكن وعدم تأمين مستقبل إطارات الدولة. (2) وقد كان المشكل الثقافي الذي برز بقوة يطرح نمطا مغايرا لازمة الانتماء التي أفرزت تخبطا كبيرا؛ فقد أحييت النزعات العرقية روحا تاريخية ؛ تمثلت أساسا في هل نحن عرب

(1) محمد الميلي: مواقف جزائرية. ص 270

(2) المرجع نفسه. ص 270 وما بعدها.

أم أما زيغ ؟ ووجد المؤتمر الخامس لحزب جبهة التحرير الوطني وطرح قضية الإسلام وما هو الدور الذي لعبه في بلورة الانتماء الحضاري الذي أسسه.ومن ثم وأذاب الكثير من العرقيات والأجناس في وعاء اجتماعي واحد. "من هنا كان تركيز التقرير الذي اعتمده المؤتمر الخامس لحزب جبهة التحرير الجزائرية على الإسلام وما حمله للمنطقة من عطاء حضاري وما أدخله من تغييرات بنوية من جهة، وعلى مضمونه الاجتماعي من جهة أخرى".(1). وقد طرحت المواقف والآراء والحلول المنوطة بقضية ضخمة كهذه. وكان الأخذ والرد. وفي الأخير طرحت الصيغ التي تسمح ببقاء المجتمع متماسكا تحكم بينه لحمة اجتماعية واحدة. ومما جاء في التقرير المعد ما يلي: - المزج الحضاري الذي صهره الإسلام والذي أفضى إلى ظهور مجتمع جديد اكتملت شخصيته في ظل حضارة وحدت بين أبناء الأمازيغ وبين العرب الذين بشروا بالإسلام - قيام دول إسلامية بالمنطقة أسستها قبائل أو أسر أمازيغية حكمت في ظل الإسلام وباسمه، وأخذت على عاتقها نشر الإسلام وتعميم اللغة العربية شمالا وجنوبا. كما أن الجزائر مثل بقية أجزاء المغرب العربي تحتل مكانة خاصة في الجهاز الحضاري العربي الإسلامي، وهذا الأمر جعل الحاقدين الأوربيين المسيحيين يستهدفون الجزائر. (2). وربط الوجود التركي بالجزائر بفكرة الاستعمار، وبناء عليه، اعتبر الحاقدون هذا الأمر تواسلا وتتابعا للفتوحات الإسلامية الأولى " فقد تعتمد المؤرخون الغربيون تناول هذه الفترة وتصويرها على أساس أن الأتراك حكموا الجزائر حكما استعماريًا، وواضح أن هذا التناول كان يندرج في منطق عام يهدف إلى إنكار أية تاريخية للجزائر، والزعم بأن تاريخها ماهو

(1) محمد الملي: مواقف جزائرية. ص318.

(2) المرجع نفسه. ص319 وما بعدها.

إلا سلسلة احتلالات أجنبية: رومان، وندال، بيزنطيون، عرب فأتراك⁽¹⁾. والشعب الذي لا يملك تاريخا يسهل انقياده وترويضه على الشاكلة التي يريد المحتل صياغتها؛ لذلك كان الاستعمار الفرنسي يطمح دوما إلى البقاء مادام هذا الشعب -في نظره- لا يملك الماضي. "أما في المشرق العربي فإن طبيعة الحكم العثماني هناك من جهة، ووجود أقليات غير مسلمة من جهة أخرى، قد أديا إلى حدة الاصطدام مع المقومات العربية للكيانات المحلية في المشرق العربي. وقد ساعد ذلك على ترسيخ فكرة الاستعمار التركي⁽²⁾. وإذا تأملنا الخطاب السياسي في بداية الثمانينيات وجدناه حافلا بالتأكيدات على أن الوقت تغير وحمل معه رياحا جديدة ينبغي التأقلم معها وتكييفها مع معطيات العصر خاصة وأن السياسات باتت عرضة للانقلابات. وعليه تطور مفهوم الثورة الثقافية الذي كان يطرح باستمرار ويُبحث له عن الحل. ففي مقطع مقتطف من تقرير الأمين العام للحزب رئيس الجمهورية في المؤتمر الخامس لحزب جبهة التحرير الوطني بتاريخ 1983/12/19. يقول: "في هذا الإطار يتعين السعي المستمر للحفاظ على المقومات الأساسية ورفع المستوى الفكري والتقني للمواطنين، عن طريق تزويد جميع مؤسساتنا التعليمية والتكوينية من دور الحضانة إلى الجامعات ببرامج تستمد روحها من تاريخنا العريق ومن قيمنا العربية الإسلامية ومن النصوص الأساسية للثورة الاشتراكية..."⁽³⁾. مع مراعاة التاريخ الذي يظل دوما الانتماء الرابط بين مختلف الشرائح الاجتماعية و"إن الغفلة عن الجانب التاريخي والروحي والعائدي في التكوين، والاقتصار على الجانب التعليمي الفني الصرف هو الذي يفسر تعرض خريجينا لإصابات الأيديولوجيات

(1) محمد الميلي: مواقف جزائرية. ص 321

(2) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

(3) الشاذلي بن جديد: مفهوم الثورة الثقافية. مجلة الثقافة 78 / 1983 ص 7.

الأجنبية. ذلك أن التكوين العلمي والفني ليس محايدا. إن استيراد التكنولوجيا وفنيات العصر يرفد معه ألوانا من الصهر النفسي والعقائدي قد يقتلع شبابنا من جذوره الوطنية، إذا نحن لم نستعد لمواجهة ذلك من المدرسة الابتدائية حتى الجامعة... (1). إن الامتلاء الروحي هو الجدار الواقي الذي يرد كل المكائد التي ما فتئت تعمل سرا وعلانية من أجل النيل من هوية الشعب الجزائري عبر الأزمان والسنين. " لقد صهر الإسلام المجتمع الجزائري وجعل منه قوة متماسكة متعلقة بأرض واحدة ومعتقد واحد، وتستعمل اللغة العربية التي جعلت الجزائر ومجموع المغرب العربي، أوضح دورا وأخصب تبادلا في تفاعله مع المشرق والجنوب. وهذا بالضبط هو الذي جعل الجزائر في موقع الصدارة عن التصدي للغزو الأجنبي عندما أدركت أوربا المسيحية أهمية جبهة المغرب العربي في الكيان الاستراتيجي [والصواب الاستراتيجي] والجغرافي للإسلام. " (2).

إن الأساس من التعرض لوصف الوضع الاقتصادي والاجتماعي، هو معرفة طبيعة الإفرازات الثقافية التي سايrote أحيانا واختلفت معه أحيانا أخرى. وعلى هذا الأساس نجد النص الشعر قد بدأ يكثر من الاسئلة التي لا تتصلح مع مختلف الأوضاع السابقة التي عرفناها في الواقع الجزائري. وبدأت الأفكار والثقافة تتحول بطريقة ما عن المسار الذي رسم في العشريات السابقة، وسندرك مثل هذه الامور عندما نتعرض إلى الاشعار التي تنتشع بمثل هذه الرؤى.

وفي مسار التغيرات التي صاحبت عشريات ثلاثة لما بعد الاستقلال الوطني، جاءت حركة الشعر الجزائري المعاصر، وهي تحاول دوما ملامسة

(1) الشاذلي بن جديد: مفهوم الثورة الثقافية. الثقافة. العدد 78. السنة 1983. ص 8.

(2) المرجع نفسه. ص: 14.

لب هذه المتغيرات وتضع لنفسها عوالم رؤيوية ثاقبة. فهي تبحث عن هوية الإنسان الجزائري، وتريد محاورته باستمرار. كما أنها تبحث من جهة أخرى عن هويتها، وكيف تبني لنفسها متونها وأنساقها البنائية والشكلية. وإذا كان ذلك هو مسار الإداري والسياسي، فما موقف المثقف والفنان وما رؤيته نحو واقع المجتمع الجزائري ومستقبله؟ وسنحاول الإجابة عن بعض هذه الاسئلة في الباب الثاني.

الباب الثاني / الحركة الشعرية الجزائرية المعاصرة بعد الاستقلال: بحث في هوية الخطاب وهوية الذات.

الفصل الأول: / الخطاب الشعري الجزائري ضمن إطاره الحضاري.
الفصل الثاني: / الخطاب الشعري الجزائري المعاصر والحس الحدائي.

الفصل الأول: الخطاب الشعري الجزائري ضمن إطاره الحضاري.

- 01 / الخطاب الشعري داخل حركية الخطاب السياسي / خطاب الانتماء.
- 02 / الالتزام / الخطاب النموذج.
- 03 / رؤى الانفتاح على الواقع الممكن / الخطاب المفتوح.

01 - الخطاب الشعري داخل حركية الخطاب السياسي/ خطاب الانتماء.

عاش الأدب الجزائري منذ وجد إشكالية وجودية تتبع أساسا من خصوصيات بيئته ومظاهرها البشرية والجغرافية. ولعل المنتبغ لمسيرة هذا الأدب في دهوره الأولى يدرك الأمر بشكل جلي؛ فقد كان التركيب الاجتماعي البربري قبل الفتوحات الإسلامية عائقا أمام سرعة انتشاره في تلك البيئة. وكان الالتفات أولا لاستتباب أمر الخلافة والقيادة ثم بعد ذلك نشر تعاليم الدين والثقافة الجديدة(*)). وعليه تأخر ظهور الشعراء والأدباء، وكان عبد الرحمن بن زياد الباكورة الأولى في الشعر، وتلاحقت فيما بعد قوافل الشعراء والأدباء إلى أن تأسست الشخصية الأدبية المستقلة. والأمر يكاد يكون نفسه مع مراعاة الفوارق التاريخية؛ ففي عهد الاستعمار الفرنسي الظالم؛ ونظرا لتحقيق الكثير من مساعي محو الشخصية الوطنية، خاصة التجهيل، وجعل اللغة العربية غريبة في بلدها. فقد ظهر الشعراء والأدباء مع قليل من الجمهور؛ لأن القارئ لا يمكن أن يتقبل

(*) نَقَفَ الشيء نُقْفًا ونُقْفًا ونُقُوفَةً: حَذَقَهُ. وَرَجُلٌ نَقَفَ وَنُقِفَ وَنُقِفَ: حَاقَقَ فِهْمَهُ. وَنُقِفَ الرَّجُلُ تَقَافَةً أَيْ صَارَ حَاقِقًا. للاستزادة ينظر معجم لسان العرب لابن منظور ج2. ص: 111 وما بعدها. ويذكر مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة في تعريفًا للثقافة قائلا: "هي مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته" ص125 من: شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مقاوي-عبد الصبور شاهين دار الفكرط3. 1969.

عملا أدبيا وهو جاهل لآليات اللغة التي تؤهله للتقبل. ومع ذلك تلاحقت أجيال من الشعراء الذين حملوا لواء الشعر والأدب خاصة المعبأ بملاحم الشخصية الجزائرية؛ ابتداء من عمر بن قذور وسعد الدين الخمار إلى رمضان حمود ومحمد العيد آل خليفة ومفدي زكريا والربيع بوشامة وعبد الكريم العقون وغيرهم من الأبطال الأفذاذ الذين مكنوا للشعر في جزائر القرن العشرين وجودا فاعلا. ومن الطبيعي جدا أن يتلمس هذا الكيان الأدبي معالم طريقه وسط خضم من المتغيرات السياسية والاجتماعية... عبر الحقب والسنوات، إلى أن تبوأ مقعده في الساحة الأدبية العربية والعالمية. وطبيعي أيضا أن يتشبع هذا الشعر الجزائري بروح من الانتماء تصب في بؤرة الجسم العربي بخصوصياته وتفاصيله.

إننا ننطلق في معالجتنا للخطاب(*) من جانبه التعبيري والتشكيلي" على أساس أن الخطاب الشعري عندما ينطلق على مستوى التعبير، يمكن تصويره باعتباره نوعا من عرض الوحدات الصوتية المتشاكلة التي يمكن التعرف فيها على مجموعة من التوازيات والبدائل، من المتآلفات والمتنافرات، وعلى مجموعة من التحولات الدالة للحُزم الصوتية في نهاية الأمر" (1). ونتعامل مع الخطاب الشعري الجزائري المكتوب بالعربية من فكرة أنه لا يمكن تجزئ هذا الشعر لأنه حلقات متواصلة عبر الامتداد التاريخي، وإن كان يتوجب علينا معالجة فترة ما بعد الاستقلال فلأن التقسيم ضرورة منهجية تقتضيها المطالب

(*) مصطلح النص متداخل مع مصطلح الخطاب. وكذا مع مصطلحات أخرى كالعمل والأثر الأدبي. فالنص مشتق من الكلمة اللاتينية (text) من الاستخدام الاستعاري في اللاتينية للفعل الذي يعني يحوك (weave) أو ينسج، ويوحي بسلسلة من الجمل والملفوظات المنسوجة بنيويا ودلاليا. والخطاب هو فعل الإنتاج اللفظي ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية، بينما النص هو مجموع البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه. للاستزادة أكثر ينظر كتاب فاضل ثامر: اللغة الثانية ص: 71 وما بعدها.

(1) صلاح فضل: أساليب الشعرية المعاصرة ط1. دار الآداب. بيروت 1995. ص: 21

العلمية والتأصيلات المنهجية. وعليه نقصر دراستنا للشعر الجزائري على فترة الاستقلال مراعين الإطار الحضاري الذي أنبته. والمقصود بهذا الإطار مجموع الخصائص الوجدانية والدينية والاجتماعية والسلوكية المشتركة بين مجموعة من الشعوب تجمعها بيئة جغرافية ممتدة على مساحة متلاحمة الأجزاء.

ونعترف في البداية أن الشعر الجزائري في مرحلة الاستقلال-وبالتحديد في الستينيات- عاش فراغا كبيرا سواء من ناحية الإنتاج الشعري لدى الشعراء أو من جانب الطبع والسبب يعود إلى مجموعة من العوامل منها: فقدان الصحافة الأدبية، وعدم وجود اتحاد للأدباء، وقلة النوادي الثقافية، وإهمال العناية بالجانب الثقافي وتظاهراته من أمسيات وإلقاء المحاضرات، وندرة الكتاب في السوق، وكذا ضعف الطبع(*) والإنتاج الوطني وعدم تشجيع الشعراء والأدباء على النشر(1). إن الخطاب الشعري الجزائري المعاصر مترع- في الحقيقة- بأشكال التعبير عن الانتماء الحضاري؛ إذ كان في معظم الفترات منبرا للتأكيد على تحقيق مطالب الشعب الجزائري في ظل الاستعمار- في العيش الكريم والحرية والسيادة وبناء مجتمع حضاري فاعل. ومن جهة أخرى أثبت وعيه وإحساسه بالآخر العربي الذي يواجه انتكاساته وانكساراته عبر إفرازات حضارية مرحلية متغيرة ومتلاحقة. فأصبح المجتمع العربي مجتمعات والكيان العربي كيانات... "وبعبارة أخرى فالحضارة ليست كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية، في أي مجتمع كان، ولكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية، بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة

(*) في الفترة الممتدة ما بين 1962 و1970 لم تتجاوز حسيطة الإنتاج المطبوع خمس عشرة مجموعة شعرية بما فيها المطبوع خارج الوطن-للاطلاع أكثر ينظر محمد ناصر ص161 وما بعدها.

(1) محمد ناصر: الشعر الحديث ص160.

معينة ليس المجتمع المتخلف في حالة تكيف معها لا من حيث رغبته، ولا من حيث قدرته، أو بعبارة أخرى: لا من حيث أفكاره، ولا من حيث وسائله. (1).
ويبين مالك بن نبي في السياق نفسه أن قدرة المجتمعات المتحضرة ورغبتها ليستا ناتجتين عن تكديس منتجات الحضارة ولكن عن تركيب أصيل لعناصر التراب والإنسان والزمن. (2)

وقد حقق المجتمع الجزائري استقلاله وبالتالي فقد حل مشكلة التراب وأعدّها فنيا في علاقتها الوظيفية بالاختيار الاشتراكي. ولكن المشكلتين الأخريين مرتبطتان عضويا بالمشكلة الأولى لأن الزمن يظهر أمامنا بالضرورة كبعد لفعالية الإنسان (3). ففي إطار البناء والتأصيل لنمو مجتمع من المجتمعات عبر زمن من الأزمان تطرح فاعلية ذلك البناء من خلال الإنسان " لأن الحضارة (*)". يجب أن تحدد من وجهة نظر وظيفية: فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه. فالمدرسة، والمعمل، والمستشفى، ونظام شبكة المواصلات، والأمن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعها أشكال مختلفة للمساعدة التي: يريد، ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه. (4) وهناك تعريف آخر شامل

(1) مالك بن نبي: آفاق جزائرية. ص 96/95.

(2) المرجع نفسه. ص 96

(3) المرجع نفسه. ص 97

(*) الحضر خلاف البدو، والحضر خلاف البادي. الحاضر المقيم في المدن والقرى والبادي المقيم بالبادية... والحضارة الإقامة في الحضر. وكان الأصمعي يقول الحضارة بالفتح. للاستزادة أكثر ينظر لسان العرب لابن منظور. ج 3. ص: 214 وما بعدها

(4) مالك بن نبي: آفاق جزائرية. ص 46/47.

للتقافة إضافة لما سبق: " وهذا التعريف الشامل للتقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي (معطيات) الإنسان و (معطيات) المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات. " (1).

والمجتمع في أبسط تعريف له، يعني نسيجاً تتجمع فيه أفراد تربطهم عادات و تحكمهم قوانين و يمارسون وظائف شتى تنشئ فيما بينهم مصالح مشتركة. و هذا المجتمع قد يحمل بداخله بذور استمراره و يحقق بذلك جوهر الكيان الاجتماعي وقد يفقد شخصيته و يتآكل عبر التاريخ و يصبح نسياً منسياً. ويقول ماركس في هذا الشأن: "إن الناس، أثناء الإنتاج الاجتماعي لحياتهم، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية، مستقلة عن إرادتهم. وتطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية. ومجموع علاقات الإنتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقه حقوقي وسياسي وتطابقه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي" (2). ويواصل طرحه مستكملاً رؤيته: "إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة، فليس إدراكك للناس هو الذي يعين معيشتهم بل على العكس من ذلك، معيشتهم الاجتماعية هي التي تعين إدراكهم" (3). وتتصارع القوى المتناقضة عبر

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مقاوي، عبد الصبور شاهين. ط3. دار الفكر. 1969. ص 126/125

(2) لينين: المختارات. ج1. دار التقدم. موسكو. مؤسسة العصر الحديث ج م ع. 1976. ص: 40.

(3) المرجع نفسه الصفحة نفسها .

مرحلة من المراحل التي يمكن أن يصل إليها المجتمع فحين " تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها، تدخل في تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية- وليست هذه سوى التعبير الحقوقي للملكية- التي كانت إلى ذلك الحين تتطور ضمنها. فبعدما كانت هذه العلاقات أشكالاً لتطور القوى المنتجة، تصبح قيوداً لهذه القوى. وعندئذ ينفتح عهد الثورة الاجتماعية. ومع تغير الأساس الاقتصادي يحدث انقلاب في كل البناء الفوقي الهائل".(1). فشبكة العلاقات الاجتماعية تتأسس، حسب علماء الاجتماع، من منطق الغريزة التي تحدد معالم الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً، ثم تعطى له مسببات الحركة الزمنية، فيصبح عنصر الزمن هو الحدث الأساسي للمجتمع، إذ ينطلق من نقطة معينة باتجاه نقطة أخرى، يكون التطور عنوان السيرورة الاجتماعية، و يتجه نحو إنتاج الأفكار والإمكانات المادية التي تدعم علاقات الأفراد فيما بينهم، و بتأسس البنى المادية و الثقافية، و تجادلها مع بعض، يحدث الوعي و تتشكل الرؤى، و تنتج الأطر الحضارية التي تميز المجتمعات بعضها عن بعض. فعامل الحضارة هو عامل حساس، في واقع الأمر لتسطير التوجهات الثقافية و الفكرية و الإبداعية لدى المجتمعات و الأمم. وكم حدثنا التاريخ عن حضارات الأمم و الشعوب، مثل حضارة الفراعنة، و حضارة البابليين و الآشوريين، و حضارة الإغريق و الرومان ... و لئن كانت هذه الحضارات من إنتاج الإرادة الإنسانية أو الفعل الإنساني النابع عن إرادة الإبداع المستمر و المتميز، فإن الفوارق تبقى كائنة و موجودة، و ذلك ناتج عن اختلاف البنى الفكرية و الثقافية و الرؤى و التصورات و ما يزال البحث عن مسببات تلك الحضارات يطرح بحدة إلى وقتنا الراهن، إذ البحوث تقوى من حين إلى

(1) لينين: المختارات. ج1. ص 40.

آخر بمنطلقات منهجية حديثة تستوعب الواقع المعرفي الحالي و تحاول الاستكناه و الكشف عن حقيقة الوجود الإنساني. من هذه المناهج نجد المنهج الأنثروبولوجي، و الأنثروبولوجي المعرفي ... و كلاهما يبحث في قضايا الإنسان و تفاعله مع محيطه الطبيعي و الاجتماعي التاريخي، و تطوره من مرحلة إلى أخرى و اكتسابه الأفكار و الرؤى. و امتلأت الساحة الفكرية و الفلسفية بمصطلحات البحث الحدائي الذي يحاول دوما دراسة مظاهر التحول الإستمولوجي و مسبباته عبر الأزمنة التاريخية منها: أركيولوجيا المعرفة - جينيالوجيا المعرفة - تاريخ الأفكار ... إن هذا الغليان ناتج - في اعتقادنا - عن بعض الإفرازات الفكرية و الأنساق الثقافية التي تحدث التصادمات الحضارية بين الأمم و الشعوب. و من كل ذلك فالحضارة "حضور مع الأشياء مع الطبيعة مع الكائنات فاعل و متفاعل و بقدر ما يكون الحضور والفعل قويا، و بقدر ما يكون رد الفعل واختزان الخبرة وإعادة التجربة بالخبرات المتراكمة المضافة قويا كذلك بقدر ما يكون الحضور رائعا و ممتعا تكون الحضارة جديدة متجددة ناصعة و مشرقة لأنها دوما ابنة يومها." (1) فالعمل الأدبي حامل لعنوان حضاري ما يتأسس من منظور التركيبات الاجتماعية التي ينتمي إليها وعليه " نصل إلى أن كل الأعمال الأدبية تقريبا تمتلك وظيفة نقدية جزئية، في النطاق الذي تتوصل فيه أيضا - وهي تبذع كونا بشريا و متعددًا من الشخصيات الفردية والمواقف الخاصة، كونا ينظمه تماسك بنية ما ورؤية للعالم - إلى تجسيد الأوضاع التي تدينها وتقوم - لأجل جعل الشخصيات التي تجسدها عينية وحية - بالتعبير عن كل ما يمكن صياغته إنسانيا لصالح موقفها

(1) محمد الطاهر العدواني. الجزائر في التاريخ. 1/ الجزائر منذ نشأة الحضارة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ص 130/133.

وسلوكلها".(1) والغوص، إذا، أو الخوض في تفاصيل النصوص هو محاولة الكشف عن المخبوء وهتك الستائر التي تكشف عن بواطن المدلولات والمعاني بمختلف الحمولات الوجدانية والنفسانية والاجتماعية." على أن الباحث -لكي يفهم العمل الذي هو بصدد دراسته- أن يتقيد، في المقام الأول، بالبحث عن البنية التي تكاد تشمل كلية النص، وذلك استنادا إلى قاعدة أساسية -نادرا ما يحترمها المختصون في الأدب، للأسف - وهي أن على الباحث أن يحيط بمجمل النص وأن لا يضيف إليه أي شيء، وأن عليه تفسير-تكوينه محاولا إظهار كيف، وإلى أي حد، يمتلك تكون البنية المكشوف عنها في العمل الأدبي طابعا وظيفيا، أي يشكل سلوكا ذا دلالة بالنسبة لذات فردية أو جماعية في وضعية معينة".(2) وفي خضم التفاعل الحاصل بين الفرد والمجتمع أو بين الأنا والنحن والجدل أحيانا الذي يوشك أن يجعل الهوة بينهما قائمة يأتي العمل الأدبي بصيغته التي تحاول تقويض مختلف التشققات والشروخ والتصدعات الممكن أن تؤدي إلى عدم انسجام عناصره، ومنه فإنه " بعيدا، إذن، عن إقامة تعارض بين الفرد والمجتمع، بين القيم الروحية والحياة الاجتماعية، يوجد الواقع. إنه يوجد في الأشكال الأكثر اكتمالا عندما تبلغ الحياة الاجتماعية درجتها القصوى من الكثافة والقوة الخلاقة، وعندما يدرك الفرد قمة عبقريته المبدعة، وذلك سواء في المجال الأدبي أو في المجالات الفلسفية والدينية والسياسية." (3) وباعتبار

(1) لوسيان غولدمان: المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ت: مصطفى المسناوي. ط1. دار الحداثة. بيروت 1981.

ص: 36

(2) المرجع نفسه. ص: 12.

(3) لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. مقال: المادية الجدلية وتاريخ الأدب ت: محمد برادة. ط2.

مؤسسة الأبحاث العربية. ص: 19

الأديب أو الشاعر وليد طبقة اجتماعية وحصيلة عناصر من المكونات الفكرية، فينبغي عليه البحث دوماً عن إمكانات التأثير في الفئة التي ينتمي إليها، ومن هذا المنطلق يوجد " على مستوى الفئة الاجتماعية، تفاعل صميمي بين الفكر والفعل يؤثر أحدهما على الآخر. ومن ثم، فإن كل عمل أدبي هام، وكل تيار فلسفي، أو فني، تكون له أهميته ويمارس تأثيراً على سلوك أعضاء الفئة الاجتماعية، وبالعكس فإن طريقة الحياة والتصرف لمختلف الطبقات الاجتماعية، في فترة معينة، تحدد جزءاً كبيراً من اتجاه الحياة الثقافية والفنية. " (1) لقد جاءت مرحلة الاستقلال محملة بنشوة الفرحة العارمة من جهة، وبترسبات الألم الجارح مما خلفه المستعمر الحاقد من جهة ثانية. ووقف الشعر الجزائري غداة هذا الاستقلال وقفة إجلال وإكبار لعطاءات الرجال الأفذاذ الذين ضربوا مثلاً يُحتذى به فكان فاتحة لحريات الكثير من الأمم والشعوب المضطهدة. وكانت تلك الوقفة مفعمة بمعاني الحرية. " وبالرغم من أن الثورة كانت تبرهن مع مطلع كل شمس على طينة أصيلة في الجزائر غير هذه الطينة المفرنسة، التي دأب المستعمر على تأكيدها، فإن هذه الثورة لم تمنع الأفكار من التساؤل الحائر عن مصير العروبة في ثقافتها وحضارتها في الجزائر. " (2) ولا نريد في هذه العجالة أن نثبت المساعي الحثيثة للمستعمر الفرنسي من أجل أن يسقط عن الجزائر عناصر انتمائها الحضاري. هذا الأمر الذي جعل القرائح تشتد وتقوى للمجابهة والمواجهة فكان أن سددت الكلمات نحو هدفها وانطلقت كالرصاصة التي كان المجاهدون يصوبونها نحو جنود فرنسا وزبانيته. " ويتغنى الشعر بعروبة الثورة، وعروبة الجزائر، كما لم يتغن بها من قبل وتتطلق القومية

(1) لوسيان غولدمان: المادية الجدلية وتاريخ الأدب. ص: 21.

(2) صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1984 ص 259.

انطلاقة شعرية فيها عنف الاحتباس الخانق طيلة الاحتلال الفرنسي، وتطفو لفظة (العروبة) على كل بيت، في كل قصيدة، وكأن الإصرار من الطرف الآخر على أغنية (الجزائر قطعة من فرنسا) يزيد من جموح هذه اللفظة، وإلحاحها على الأبيات والقوافي. (1) وربما الأسباب الحقيقية التي تجعل الكثير من الفئات العربية تؤمن، بعمق، أن معالم الشخصية الجزائرية قد نالها من العبث الاستعماري الكثير وتعفنت وأصبحت ملازمة لمصطلح الاغتراب أو التلاشي أو المسخ " فالشرق العربي حتى قبيل إعلان الثورة كان يجهل الكثير عن الجزائر، وكانت الدعاية الفرنسية من جهة، والفراغ الذهني في الشرق العربي بالنسبة للجزائر من جهة أخرى، يتضافران على بث صورة مشوهة ليست من واقع الجزائر في شيء. والملاحم القومية في هذه الصورة هي الأكثر اهتزازا، والأشد غموضا. وقد كان لسريان اللغة الفرنسية على الألسنة الجزائرية، أكبر الأثر في جعل الصورة المشوهة صورة شبه واقعية، وتأكيد الظنون المسبقة الخاطئة في تقييم عروبة الجزائر. (2)

وتتجسد رغبة الانتصار أيضا في مجال استكمال مقومات الشخصية الوطنية. ومن شاعر إلى آخر يكون الطرح نفسه استجماعا وتألقا في كنف الهتافات الداعية إلى مراسيم البناء والتشييد والاعتراف بفضل الناس والشكر والامتنان لكل يد امتدت حاملة العون والمساعدة. ولعل إشادة الشاعر مفدي زكريا بزيارة الرئيس جمال عبد الناصر إلى الجزائر في 1963 شاهد على هذا

(1) صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث. ص 258.

(2) المرجع نفسه. ص 258/259.

الاعتراف. يقول:

هاهنا معقل العروبة،(كالنيـ	ل) وفاء، (كمصر) أرض المغاور
هاهنا كانت المذابح تذرو	نا هشيماء، وتنتقـينا المجازر
هاهنا عبقرية العرب الشمـ	م تسـامى بها ذكاء العباقر
هاهنا (برسعيد) سبعا شدادا	هاهنا مصرع الطغاة الجـبابر
هاهنا يا(جمال) عار(فلسطينـ	ن) سيمحي، أما عقدنا الخناصر؟
فهنيئاً بوحدة أنتم فيـ	ها صمام الأمان يا (عبد ناصر).
وحدة الصف للعروبة دين	كل من خان وحدة العُرب خائن(1)

ولنا أن نقراً تفاصيل المشهد الجزائري العروبي في هذا التكريس الوجداني النابع من أصالة الشاعر مفدي زكريا الذي شغل ساحة الشعر الجزائري بأفضل الأشعار المعبرة عن الارتقاء الفني والسمو التعبيري الذي قد يندر في أوساط المشاركة من الشعراء والأدباء. ويمكن أن نتبصر طبيعة الرؤية الشعرية في هذا المقطع، والتي تحاول أن تسير على الخط العربي الملازم لمسيرة التعبير الرفض للنكوص والاستسلام والخنوع لمختلف أشكال القهر. فيتحول النداء إلى تأسيس معادلة الوجود التي تقوم على مبدأ الوعي بالذات أولاً ثم بالآخر. ومن هنا تتبني إشكالية وضع الخطوط الجغرافية لتحركات هذه الذات وطبيعة المواجهة التي يمكن أن تصنعها مع الآخر، هذا الذي يشكل هدفاً من أهداف الاستماتة. ومن هذا المعطى يكون القائد جمال عبد الناصر عنواناً لمسيرة سوسيو ثقافية تطمح إلى تبني خيار جديد يساير الأوضاع ما بعد الاستقلال. والأساس أيضاً هو بنية وقائع التاريخ ضمن نسق ثقافي يفرز نمطاً كلامياً تعبيرياً قائماً على بعد استيطيقي وبعد إبستمولوجي(معرفي). ولعل الرؤية

(1) مفدي زكريا. أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى. تحقيق: وجمع مصطفى بن الحاج / بكير حمودة. نشر مشترك مؤسسة مفدي زكريا/ الوكالة الوطنية للاتصال والنشر الجزائر 2003 ص 192.

الاجتماعية التي تسعى إلى التحقق والتشكّل في هذا المقطع هي التي تريد أن ترتفع من مشكلة الأنا إلى مشكلة النحن (هاهنا معقل العروبة) و (فهنيئاً بوحدة). ويتجاذب طرفا المعادلة العربية (الجزائر ومصر)؛ فالمغرب عنوانه الجزائر والمشرق عنوانه مصر أو كنانة. وفي السياق نفسه يسعى هذا النوع من العمل التعبيري إلى صهر روح الأنا في روح الشعب أو الجمهور. ويقول الشاعر في قصيدة عنوانها: (أمنت بالشعب فردا لا شريك له. والتي ألفها سنة 1962)^(*):

هي (الجزائر)، صدر الغيب أطلقها لما تفجّر بالعملاق بركان
هي (الجزائر)، وعد الله أنجدها لما استخف بوعد الله طغيان
وتلك ألوية للنصر خـافقة، (ثالوثها) عن ضمير الشعب عنوان
وذا حمى وطني، والشمل ملتئم وبين جنبي إخوان وخـلان
وذاك قدس تداوينا بتـربته، كما تداوى بشم الترب ولهان (1) .
والأمر هنا تطلع إلى وحدة أمة كما رأينا سابقا. وهذه الوحدة عبارة عن بنية انصهر بين تفاصيلها السياسي والاجتماعي والأيدولوجي. وهذه العناصر الثلاثة تتصهر داخل المجتمع عن طريق التفاعل الحاصل من شبكة العلاقات الاجتماعية ومختلف الأمشاج الناتجة عن ذلك التفاعل، والذي يؤدي في نهاية الأمر إلى التحكم في تلك العلاقات ويجعل لها مسارا معيناً خاضعا للحمولة الأيدولوجية والتوجه السياسي الذي يعدّ من الغايات الكبرى المسيرة للدولة وهو بدوره الذي يعلن عن انتماء حضاري معين. والتوحد من منظور آخر هو التأكيد على اللحمة التي تمكّن لرباط العصمة وعدم التفكك، وهو رباط القدس الذي يعدّ أساسا من أساسات الانتماء العربي القائم على مبدأ تأسيس

(*) يمتلك الشاعر مفدي زكريا قصيدة حافلة بمظاهر الانتماء الحضاري، تتمثل في الإلياذة. وإن أهميتها في رأينا تجعلنا على يقين كبير من أن هذه القصيدة الطويلة تحتاج إلى أن تفرد لها الدراسات والبحوث المستقلة.

(1) مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم. ص: 180/179.

ذي رؤية تجمع السياسي بالثقافي ومن ثم بالحضاري ككل. إن الخطاب السياسي السلطوي في تلك الفترة بالذات كان يسعى إلى بلورة مفهوم الوحدة - وإن كان في أغلبه مرتبطا بفكرة القومية العربية(*) - وصناعة ثقافة التكامل والانسجام بين السياسي والثقافي. بين السلطة والشعب. بين الفردي والجماعي مع تكريس الجماعي بشكل أفضل. ففي سياق تعبيرى مكمل للمقطع الذي أوردناه نجد مفدي زكريا يطرح المنظومة الوجدانية الجزائرية في تكاملها مع المعطى السياسي الذي يمثل هو الآخر عنصرا من عناصر الانتماء. يقول:

هنا الأصالة في صلب، وفي رحم، هنا القرارات تدبير ورجحان
هنا(اشتراكية) من صلب واقعنا، تشاد من وحيها للسلم أركان(1)
ومنه تتفاعل البنية الاجتماعية مع المدلول السياسي وتصبح الاشتراكية -
كمذهب - عنصرا قابلا للحلول في الوجدان الذي شكله التاريخ من مجموعة من
المكونات العرقية والدينية والتاريخية. " من هذا الطموح يستمد الأدب الجزائري
المعاصر موضوعاته، وهو طموح تتقاسمه وتتشغل به جميع الشعوب العربية
الكادحة وقواها التقدمية والثورية المناضلة من أجل الاستقلال والحرية والسلم
إن، فلا عجب أن تكون الجزائر، وهي تسعى جاهدة رغم المشاكل والمصاعب
المتعددة، إلى البناء الاشتراكي(**) وتاريخه وتراثه ومميزاته الأساسية أن تكون

(*) يرى أنيس المقدسي في كتابه: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث أنه قبل القرن التاسع عشر لا يوجد ما يشير إلى بقطة قومية للعرب، ولكن لم يكد ينبثق فجر القرن العشرين حتى كانت العاطفة القومية قد أخذت تحرك القلوب والأقلام. ومن بين البارزين في هذا الشأن نجد: إبراهيم اليازجي، عبد الرحمان الكواكبي، أديب إسحاق.
(1) مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم. ص: 184.

(**) يرى صاحب هذا المقال أن هذا التوجه الأيديولوجي-الفني للأدب الجزائري المعاصر يتطور تحت إلحاح ومطالب الجماهير الكادحة في خلق وسائلها التي تعبر بها عن طموحها الروحي إلى فن يستجيب لآمالها ويطور من إمكاناتها الإنتاجية. يرجى العودة إلى: الحبيب السائح: توجهات الأدب الجزائري المعاصر. قصة وشعرا ورواية. مجلة آمال. العدد 55. السنة 1982. ص: 25.

جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية، ولا عجب أن يكون الأدب الجزائري حلقة من حلقات الأدب العربي ذي التوجه التقدمي والثوري." (1) في مرحلة الاستقلال الأولى.

وأمام شعر محمد العيد آل خليفة(*) يسير المتن الشعري الجزائري بعد الاستقلال في مسار التعبير عن طبيعة الكيان الذاتي لدى الشعراء النابع من عمق الأصالة البعيدة عن التمثل والضحالة. يقول محمد العيد في الحدث العظيم الذي ألم بالمجتمع الجزائري عندما توفي أحد أعمدة نهضتها محمد البشير الإبراهيمي(**):

فلقد كنت للعروبة فينا
ولدين الإسلام رمزا حكيما
ولقد كنت للجزائر طودا
بين أطواها تشق السديما(2).

هنا تبرز أمامنا ظاهرة الأنا/ والنحن ؛ فالانطلاق من أنا واحدة ، والانتهاء إلى أنوات/النحن في قوله(فيها). وكذلك هو النمط التعبيري بعد الاستقلال منبن أساسا على هذه الفكرة؛ ولعل مردها إلى طبيعة التكوين النفسي للشعب الجزائري الذي أدرك أن الزمن لم يعد للفرد وإنما للجماعة حتى تستطيع أن تجابه مرحلة البناء والتشييد للمستقبل. فالرجل الجزائري المعروف جدا (محمد البشير الإبراهيمي) لم يعد ذلك الإنسان الفرد الذي حمل على عاتقه هم الجهاد

(1) الحبيب السائح: توجهات الأدب الجزائري المعاصر. قصة وشعرا ورواية. مجلة آمال. العدد 55. السنة 1982. ص: 25.
(*) يمثل كل من محمد العيد آل خليفة، ومفدي زكريا فترتي الاستعمار والاستقلال؛ فقد عاش كل منهما الفترتين.
(**) قيلت في 1 ماي 1965. ولا نريد من مثل هذه التواريخ أن نوقع أنفسنا في مطبة شعر المناسبات وإنما الضرورة المنهجية هي التي حتمت علينا ذلك.

(2) محمد العيد آل خليفة: الديوان. ط3. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. دت. ص490

من أجل عزة الجزائر. وإنما صار ذلك رمزا حكيما ممثلا حكمة ورشادا
وهداية لباقي الأمة العربية. يقول الشاعر نفسه في قصيدة خاصة بالإمام عبد
الحميد بن باديس:

عاش وقفا على الجزائر والإسـلام يراعهما وفي الذمام
وغيورا على الشريعة يـأبى غير تشريعها لفضّ الخصام
وغيورا على العروبة يُفـشي ضادها لاهجا به في الكلام.(1).
هنالك معادلة وجودية أخرى في هذا المقطع وهي أن العلم هو إفشاء وإذاعة
وأن الغيرة على العروبة لا تتم إلا إذا كان المبدأ الأساسي هو الدفاع عن لغة
الضاد والاستماتة في نشرها وإعطائها القيمة المثلى في بناء المجد الحضاري؛
ولعل الأمر هنا مربوط بمدى التشبع من ينابيع الثقافة العربية الإسلامية(*)
القادمة من بحار التاريخ العربي الزاخر. مع ربط الأمر بمختلف التحولات
الجديدة التي أصابت الشعوب والأمم. يقول محمد العيد في القصيدة نفسها
مخاطبا ابن باديس:

قم تجذّ شعبك المخلف قبلا
قم تجد دولة الجزائر قامت
قم تجد راية الجزائر تعلو
شبّت الثورة التي منك هبّت
واستتبّت أسبابها فاستحالت
صدّ جيش التحرير فيها قوى البغي وردّ العريـن للضرغام(2)

سار شوطا مع الشعوب النوامي.
وأقامت بالحكم حر النظام.
فوق كل الربـوع والآكام.
ريحها حين شبّ عود الضرام.
كل أنغامنا إلى ألغام.

(1) محمد العيد الديوان ص497.

(*) هناك دراسات متعددة اقيمت حول شعر محمد العيد لم نعد اليها لعدم الحاجة الى ذلك منها اسلاميات محمد العيد
لمحمد مصايف في كتابه فصول في النقد وكتاب أبي القاسم سعد الله: محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث.

(2) محمد العيد الديوان ص498.

تندمج في هذا المقطع البنية السياسية مع البنية الثورية. ويتحاور مدلول هذا المكسب مع طبيعة التركيبية الاجتماعية التي أفرزتها مرحلة ما بعد الاستقلال. فتحديد المسار السياسي والثقافي والاجتماعي الجديد يقتضي كتابته وفقا لرؤية تعمل على إقامة الانسجام بين كل هذه العناصر. إضافة إلى أننا في هذا المقطع نتلمس أبعاد الرؤية السياسية (دولة الجزائر) التي تريد أن تربط البلد بالأقطار الأخرى ذات الهم المشترك، وذات السياسة المماثلة، من بينها ما يعرف بالدول النامية التي خرج بعضها من دائرة الاستعمار، وبقي البعض الآخر يتخبط فيه. والانطلاق من الكائن للوصول إلى ما يمكن مرهون دوما بمدى الفاعلية الفكرية التي تكرس الاعتقاد بقوة وتجعل منه سندا في البناء والتعمير. وحتى في موطن النكبات والانتكاسات، تحاول الرؤى الشعرية صنع الأمل، ورفع التحدي لمواجهة الهزيمة. يقول الشاعر أبو الحسن علي بن صالح في قصيدة (نكسة يونيو):

هبت جماهيرنا للذود عن حرم	إن الجماهير أبطال ميامين
طارت جزائرها في جيشها وبدت	كالليث قد برزت منه البراثين
طيارها كشهاب راح منطلقا	فانقض فاحترقت منه الشياطين
وسوريا في خطوط النار صامدة	على العدى انفجرت منه البراكين
قد ارتدى الأردن المغوار أردية	الدماء يدفعه الإيمان والدين
إن العراق عريق في بطولته	على استماتته دلت براهين (1).

ويندرج ضمن هذا الفهم -لقضية العرب والعروبة - وعي الانتماء والتوجه إلى ملمح التكاتف الجماعي، وتصبح رؤية الجماعة هي الطاغية على الوجدان وعلى النفوس. فالمقطع عبارة عن متتاليات تستوعب في مداليلها معاني البطولة

(1) أبو علي بن صالح. مآسي وأين الآسي؟ المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1988. ص44.

التي تنبعث كتطلع للمستقبل؛ وبناء على ذلك الأمر يكون الوجود العربي هذا متأسسا فوق جغرافية العروبة والإسلام. ويزول الفارق الموجود بين السلطة والشعب أو بين الحاكم والمحكوم؛ ويشفع لنا في هذا الفهم اللفظ (جماهيرنا)؛ فالمظهر اللغوي متناغم مع المظهر الاجتماعي، ووحدات النص تتموقع على مساحة الذات الجماعية التي تخزن مداليل تلك البطولة. ويمكن القول: إن الشاعر الجزائري " صور إحساسه بقضايا الثورة في الوطن العربي، وكان صادقا في إحساسه؛ لأن شعوره كعربي جعله يحس بوقع الأحداث وكأنها وقعت له، ولم ينس المناسبات السياسية التي لها صلة بقضايا الثورة لأنها تتويج لها." (1). وعليه نقول: إن الالتفات إلى قضايا العروبة والإسلام لم يأت من باب التقليد للمشاركة وإنما كان مرده إلى عدة اعتبارات حضارية بالدرجة الأولى: فقد " وقف كثير من الكتاب والأدباء الجزائريين يدعون الشعب، ويوجهون الشباب إلى الشرق لينهل من علمه، ويقتدي بزعمائه، ويحفظ تراثه. وهم إذ يرسمون هذا الاتجاه لا يعنون بالشرق مصطلحه الجغرافي والسياسي، وإنما كانوا يقصدون الشرق في مفهومه العربي أو القومي، وذلك في مقابل اتجاه آخر حاول الاستعمار أي [والصواب أن] يغري به طبقة من شباب الجزائر المتثقفين... اتجاه غربي، يؤمن بالغرب في حضارته وماديته، ويعمل للغرب في يومه وغده، وبالتالي كان هذا الاتجاه يرمي إلى فصل الجزائر عن كيان الأمة العربية." (2).

الأساس في الخطاب الشعري الجزائري غداة الاستقلال هو السعي في تكريس انتماء ما يتلاءم مع مختلف المعطيات التي أنتجت الخط السياسي

(1) عبد الله الركيبي . قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر . ص114

(2) أبو القاسم سعد الله. دراسات في الأدب الجزائري الحديث. الدار التونسية للنشر 1985. ص108.

والتوري والاجتماعي ومنه الإيديولوجي. ونعتقد أن السلوك نفسه ينطلي على
الفترة الموالية مع مراعاة بعض الخصوصيات الزمنية التي أفرزت جوانب
أخرى تتماشى مع التحولات التي أصابت بنية الرؤى الحياتية.

لعل البحث عن تأسيس الذات بشكل أقوى من الفترة السابقة هو الطرح الذي نتلمسه في بنية الخطاب الشعري الجزائري منذ مطلع السبعينيات. وربما السبب يعود إلى الرغبة الملحة في ترسيخ الهوية المستقلة لهذا الكيان الأدبي. مع مراعاة الخصوصية المحلية والظروف الراهنة التي لا يمكن بأي شكل من الأشكال تجاوزها أو تخطيها. ومن هذه الفكرة، يتراءى لنا، بادئ ذي بدء، أن فكرة الالتزام راودت شاعر هذه الفترة واستحوذت على وجدانه، وطعمت إيديولوجيته الأولى بنسخ مقو لاستكمال غمار التجربة السابقة.

إن التسليم بكون العمل الأدبي لا يمكن أن ينفصل عن الحياة البشرية لأنها موضوعه الذي لا يبلى، هو شيء مسلم به أكده الكثير من الباحثين. ولكن قد يحصل التسليم بأن المضامين الفكرية لدى الأدباء تكون متباينة ومتصارعة فيما بينها في الكثير من الأحيان؛ لذلك نجد من يرى أن الأدب سمو عن الحياة وتجاوز للتفاصيل اليومية، ورحلة نحو أبراج عالية. ومن قال إنه نقد للحياة وملازمة لها في جميع أشكالها. وقديما أخرج أفلاطون الشعراء من جمهوريته لأنهم يفسدون عواطف الناس، وعاد كرة أخرى واستثنى الفئة التي تتغنى بالآلهة بل وتمجدهم. إنها، إذا، إدخال الأديب أو الشاعر في وضع إلزامي مفروض لا يمكن أن يتصل منه. فإذا جئنا إلى العصر الحديث وجدنا أن فكرة الالتزام تنقلص وتتبسط مع كل مدرسة نقدية. «وكان بروز الثورات العربية خلال الحقبة الأخيرة من حياة الأمة العربية من أقوى العوامل المرجحة لإحدى كفتي هذا الجدال»⁽¹⁾. إن محور الصراع يرتكز أساسا على الطروحات

(1) عز الدين إسماعيل. الشعر في إطار العصر الثوري. ط1. دار القلم. بيروت 1974. ص: 16/15

المتناقضة التي تحدث بين مدرسة فكرية وأخرى؛ فكل واحدة تحاول التأسيس لمذهبها الذي ترتضيه. والحقيقة أن "الصورة المبسطة لهذا الجدل تتمثل في ذلك الصراع بين الأيديولوجية والفن فالأيديولوجية تمثل تفكيراً أو موقفاً فكرياً محدوداً، في حين أن الفن أفق طليق بلا حدود." (1). وهذا الأفق يسيح فيه المبدع بروحه ويترنح كطائر يشدو. ومع هذه الحرية التي يطمح إليها المبدع في تخطي عالمه الحقيقي إلى عالم مفترض أو متخيل، نقول ما قاله رولان بارث (Roland Barthes): "تعتري الأيديولوجيا النص مثل تورثد يعلو وجهاً." (2). إن هناك أموراً تبدو في الظاهر متناقضة، ولكنها في الباطن منسجمة ويستطيع أن يضمها نسق واحد من دون أن يتعارض أحدها مع الثاني. "فالالتزام يعني حرية الاختيار، وهو يقوم على المبادرة الإيجابية الحرة من ذات صاحبه، مستجيباً لدوافع وجدانية نابغة من أعماق نفسه وقلبه." (3). وفي النهاية يمتزج العقل بذلك الوجدان ويؤسسان التزاماً ذا صبغة فكرية، وهكذا تتحلّى الأبعاد الاجتماعية بمنظور رؤيوي يجسد ملامح الواقع الممكن، بل يعيش دوماً في تطلع إلى التطور، والحس المتواصل بالمتغيرات. وتكون العملية الإبداعية المجسدة لهذا المحتوى شاعرة بمسؤوليتها الإبداعية أولاً، ثم بالمجتمع -بكل معالمه التاريخية والحضارية- ثانياً. "ونستطيع القول بكون الانخراط في صفوف الأمة وتبني أفكارها وشعاراتها أولاً ثم إخراج كل ذلك في خطاب بنيوي يحمل رؤى الجماعة،" وقد يكون الالتزام بمفهومه المذهبي سرى إلى الفنون على نطاق واسع في أثر الحرب العالمية الثانية نتيجة حتمية لتطورات وأحداث عصفت بالعالم حيناً، واجتاحت عقول مفكره وقرائح فنانيه. ولكن

(1) عز الدين إسماعيل: الشعر في إطار العصر الثوري. ص18.

(2) Roland Barthes : Le Plaisir du Texte. Editions du Seuil. 1973. p45.

(3) أحمد أبو حاقّة: الالتزام في الشعر العربي. ط1. دار العلم للملايين. بيروت 1979. ص14.

جذور هذا المذهب وجدت منذ أصبح للإنسان قضية يتبناها ويعمل في سبيلها، وعقيدة يعتنقها ويجاهد من أجلها. (1). ومن طبيعة العمل المسؤول أن يكون هادفاً إلى غاية محددة. "وللالتزام الفكري هدف، هو الكشف عن الواقع الراهن، والسعي إلى تغييره؛ أو قل: هو السعي إلى تغيير ما ليس سليماً فيه." (2). وفي خضم التيارات والمدارس "تعتبر الواقعية عنصراً أساسياً في الالتزام الاشتراكي لأن هذا الالتزام ينطلق من المادية التاريخية التي هي لب الواقع، ولأنه يؤمن بالعلم والعقل والعمل والموضوعية، ولا يعتد بالغيبيات والماورائيات الميتافيزيقية ولأنه أيضاً يعالج الواقع التاريخي والواقع الاجتماعي من أجل التغيير والتطوير والقضاء على آفات المجتمع." (3). وليس واجباً على المبدع، شاعراً كان أو أي شيء، أن يتبحر بالمفهوم الغربي للالتزام، أو الاشتراكية، أو أي تيار متأثر به من قبل أدبائنا، وإنما الأساس يكمن في الفهم الجيد للقضية ومحاولة بلورتها وفق معاييرنا النفسانية والثقافية والحضارية. مع اعترافنا بأن "أيديولوجية الشاعر الحديث تتبع من إحساسه الذاتي بالقضايا الكيانية الكبرى. لذلك فهو لا ينحصر في أطر سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وإنما هو يكتسب أيديولوجيته في الإطار الحضاري الشامل لمأساة الإنسان." (4). لقد طرحت عدة إشكالات في الوطن العربي ككل في سنوات الستينيات والسبعينيات، ومن بين هذه الإشكالات -حسب جلال فاروق الشريف- عدم تماثل البنى الثقافية في المجتمع العربي، والسبب هو اختلاف الأنظمة السياسية. ومثل هذا الأمر كرس مؤثرات غربية خارجية على هذا الوطن العربي الكبير.

(1) عمر الدقاق: نقد الشعر القومي. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1978. دون ذكر رقم ط. ص 92/91

(2) أحمد أبو حقة: الالتزام في الشعر العربي. ص 14

(3) المرجع نفسه. ص 33

(4) غالي شكري: شعرنا الحديث... إلى أين؟ دار المعارف بمصر 1968. ص 175/174

منها: الانفصال السياسي بين الأقطار العربية. والتطور اللامتكافىء بين هذه الأقطار(1). وعليه كان يفترض على الأدب أن يحمل محتوى سياسيا قادرا على المواجهة(*) " إن هذا المحتوى السياسي-إذا صح التعبير-لمسألة مستقبل الأدب العربي المعاصر يفترض مسبقا المسألة الأيديولوجية أي مسألة المنطلقات النظرية لحركة التحرر العربية في آفاقها الوجودية الاشتراكية. مسألة النضال ضد الإمبريالية وحلفائها في الداخل من الرجعيين والانفصاليين والمستغلين وسائر قوى التخلف في المجتمع العربي."(2). ومنه يتكرس الاعتقاد أكثر بضرورة تدعيم المنهج الذي يستوعب الأنا في علاقات بنائية مع الجماعة وتأسيس شبكة قادرة على التلاحم من خلال أمشاج اجتماعية وتاريخية وثقافية قوية ومتينة. والأديب من واقعه يصنع قضيته والتزامه" إذ لا معنى للالتزام إذا لم يكن محتواه الشرط الإنساني الراهن بكل أبعاده الفكرية والسيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية."(3). ووجود التناقض داخل البنية الاجتماعية يفزر بعض التصورات المتباينة في العمل الإبداعي؛ ولعل الشاعر مثلا يكون محاطا باستفهام كبير مفاده: ما الجهة التي ينتمي إليها ويحاول إعطاءها أنفاسه الوجدانية؟ أو بمعنى آخر تظهر مشكلة: المبدع المتحزب والمبدع الحر، و" إن كلا من هاتين الوضعيتين تظهر في فترات تاريخية مختلفة، وكأنها أفضل وضعية مسعفة على الإبداع الأدبي والفلسفي. ولقد سبق القول- والكلام لغولدمان- بأن الفن يعبر عن طريقة في الإحساس بالكون والنظر إليه. وخلال فترات الحماس الجماعي الكبير، عندما تتوافر وحدة

(1) جلال فاروق الشريف. إن الأدب كان مسؤولا. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1978. ص76

(*) هناك نوع من الأدب تحول إلى بوق وغرق في الدعاية الأيديولوجية على حساب الأدوات الفنية التي تسمو بالإبداع إلى مصاف الجمال

(2) المرجع نفسه. ص84/85

(3) المرجع نفسه. ص88